تدبر
سورة يوسف

www.alukah.net

من سلسلة أنيس المتدبر

تدبر

سورة يوسف

د/ شريف فوزي سلطان

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلِّ اللهم وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وكل من اهتدى بهديه واقتفى أثره واستن بسنته إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه الورقات التي تحتوي على (تدبر سورة يوسف)، ضمن سلسلة، أنيس المتدبر.

وأنيس المتدبر ليس تفسيراً للقرآن، وإنما هو وقفات تدبرية وومضات إيمانية وفوائد تربوية يقف عندها القارئ والمتدبر، ليحصل له ما وعده به ربه في كتابه حين قال:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (ص:٢٩)

سائلاً الله تعالى أن ينفعني وأهلي والمسلمين بما كتبت، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل وأن يجنبنا الهمل والزلل إنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

١) عن مُصعب بن سعد عن أبيه قال: أنزل الله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فأنزل الله: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) فقالوا: يارسول الله، لو حدثتنا؟ فأنزل الله

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ الزمر: ٢٣ (١).

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) ﴾.

١) ﴿ الر ﴾

هذه الحروف الثلاثة، هي وأمثالها كـ ﴿ ص ﴾، ﴿ عسق ﴾، ﴿ كهيعيص ﴾، ﴿ طسم ﴾، ﴿ طه ﴾، ﴿ يس ﴾ وغيرها، ما تسمى بالحروف المُقطعة، جاء الله تعالى بها إظهاراً لإعجاز كتابه وإعلاناً للتحدي، فالقرآن منتظم من هذه الحروف وأمثالها، فمن أنكر القرآن أو كان في شك منه فلينظم منها مثله أو سورة أو آية، ولن يستطيع!!

يدل على رجحان هذا القول: أنك لا ترى سورة استفتحت هذا الاستفتاح إلا وجدت الله ينتصر لكتابه عقب هذا الاستفتاح ففي الزهراوين يقول الله تعالى ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ البقرة: ١، ٢، ﴿ الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ آل عمران: ٢،١، ٣.

وهنا يقول: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا.. ﴾.

٢) ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

---

١ – أخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن جرير، والحاكم، وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول

وإنما وُصف القرآن بكونه مبيناً لوجوه:

الأول: أن القرآن معجزة قاهرة وآية بينة للنبي صلى الله عليه وسلم.
الثاني: أنه بيَّن فيه الهدى والرشاد، والحلال والحرام، والحدود والأحكام وما يُحتاج إليه من أمر الدين والدنيا.
الثالث: أنه بُينت فيه قصص الأولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين.([2])

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) ﴾

١) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾

أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتُدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان فكمل من كل الوجوه ([3]).

٢) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾

وإنما نزل القرآن بلغة العرب؛ لأنها أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفس ([4]).

٣) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾

حين يختار الملك الحق، خالق كل شيء، اللغة العربية لكلامه وجب أن يُعتَنى بها، وجب أن تُعرف قيمتها، وجب أن تُتعلَّم، ولذلك لم يمض على انتشار الإسلام في بلاد الروم والفرس وبلاد أفريقيا وغربي أوروبا، زمن يسير حتى علت العربية على لغات هذه الأمم، بل نسختها كما تنسخ آية النهار الليل، والآن يُخطط للمسلمين عكس ذلك تماماً والأمة منساقة!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤) ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

القرآن يدعو إلى التعقل، وهذه الدعوة منثورة في كتاب الله: ﴿ أفلا يتدبرون ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ ﴿ أفلا تتفكرون ﴾.

---

[2] – تفسير الرازي.
[3] – تفسير ابن كثير.
[4] – محاسن التأويل للقاسمي.

٥) ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

التعقل الذي دعا إليه القرآن، لم يكن أبداً دعوة إلى أن يتبع العبد هواه، وأن يتجاوز بالعقل حده، وإنما هي دعوة إلى معرفة الغاية التي من أجلها خلقنا، ونهاية المطاف بعد هذه الحياة.

فليس بعاقل من أفنى عمره في لذات الدنيا من منام وطعام وشراب وشهوات وهو يرى الموت يحصد أمامه من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً.

وليس بعاقل من رأى عاقبة الكفرة والفسقة والعصاة ثم يسير على سنتهم ويكرر ضلالهم.

فالعقل الحقيقي: أن يُعدّ الإنسان لمستقبله بعد رحيله عن هذه الحياة.

٦) ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

ينمو العقل: بالعلم، والتجارب، والشورى، والسن.

٧) ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

لن تنتفع بالقرآن إلا بعد الإنصات، والرغبة في الاستفادة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق:٣٧

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾

١) ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

لماذا كانت هذه السورة أحسن القصص؟

- قيل: لانفرادها عن سائرها بما فيها من ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والرجال والنساء وكيدهن ومكرهن، مع ما فيها من ذكر التوحيد والفقه والسِّير وحسن الملكة والعفو عند المقدرة وحسن المعاشرة والحيل، وتدبير المعاش والمعاد وحسن العاقبة، وفي العفة والجهاد والخلاص من المرهوب إلى المرغوب، وذكر الحبيب والمحبوب، ومرأى السنين وتعبير الرؤيا والعجائب التي تصلح للدنيا والدين.
- وقيل: كانت أحسن القصص؛ لأن كل من ذُكر فيها كان مآله إلى السعادة، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز، والمِلك أسلم بيوسف وحسن إسلامه...." (٥).

---

٥ - البحر المحيط: أبو حيان.

- وقيل: كانت أحسن القصص؛ لأنها السورة الوحيدة التي بدأت بحلم وانتهت بتحقيق الحلم، وكأن الله يُعلمنا بأن المريض سيُشفى، والغائب سيعود، والحزين سيفرح، والكرب سيُرفع، وصاحب الهدف سيصل.
- وقيل: كانت أحسن القصص؛ لاشتمالها على حاسد ومحسود، وعاشق ومعشوق، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وحابس ومحبوس، وخصب وجدب، وحزن وفرح وغنى وفقر، ويقظة ومنام.

قال ابن تيمية: في قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب وغير ذلك ([٦]).

- وقيل: كانت أحسن القصص، لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم وعفوه عنهم بعد الالتقاء بهم، وكرمه في العفو حتى قال: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾.
- قال خالد بن معدان: " سورة يوسف ومريم مما يَتفكه بهما أهل الجنة في الجنة، وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح " ([٧]).

فقد حوت السورة حكماً وعبراً لم تحوها غيرها.

٢) ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾

القصة في كتاب الله حقيقة لا خيال، فمن خصائصها إذن ترسيخ معني الإيمان في النفوس.

٣) ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾

القصة في الكتاب والسنة ليست حكاية عاطفية، يقطع بها الوقت أو يُتفكه بها، خالية من الأهداف، بل القصة في كتاب الله مليئة بالفوائد العقدية والسلوكية والتربوية والدعوية والفقهية واللغوية والحياتية،ويبقى التدبر والتأمل ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف: ١١١.

٤) ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾

أفَبعد أحسن القصص يُقبل كثير من الشباب على الروايات والقصص المبني على الخيال والكذب، فضلاً عن الأفلام والمسلسلات التي تدعو دعوة صريحة إلى شتى مظاهر الانحراف والانحلال من مخدرات وجنس وعنف وغيرها!!

---

[٦] – مجموع الفتاوى.

[٧] – حاشية الصاوي على الجلالين

إن ذلك ليكشف عن حجم الفراغ الفكري والإيمان الذي يعاني منه شباب هذا الجيل.

٥) ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

الغفلة قسمان: غفلة يُذم عليها الإنسان، وهي فيما إذا كان قد بُلِّغ شيئاً وعلمه ثم غفل عنه.

وغفلة يعذر بها الإنسان وليست مذمومة قط، وهي فيما إذا غفل عن شيءٍ لم يبلغه ولم يعلمه.([٨])

٦) ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

الإنسان بغير القرآن من الغافلين.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾

١) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ.... ﴾

الأدب مع الآباء، والتلطف في الخطاب معهم، لمن أكبر الأدلة على السلوك السوي والخلق القويم.

٢) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ.. ﴾

كان جواب الأب على ولده ﴿ يا بني ﴾ لما غابت هذه الكلمات الجميلة من قواميسنا، حلت محلها السفاسف والسباب، سفاسف من الأبناء، وسوء أسلوب وسباب وقسوة وعنف من الآباء، فنتج عن ذلك الأخلاق الفاسدة والانحرافات النفسية وتشوهات الشخصية.

٣) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ.... ﴾

أين اليوم من يجلس مع أبيه يقص عليه ما يجري له؟

غابت هذه الصورة لغياب الآباء عن أبنائهم تربية وتنشئة وعناية، بعد أن صارت العلاقة بين الآباء والأبناء علاقة طعام وشراب ولباس!!

فبحث الأبناء عن مصادر أخرى يبثون إليها شكاواهم فلم يجدوا سوى الرفاق أو مواقع النت وشبكات التواصل!!

٤) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ.... ﴾

التربية ليست بالأمر الهين، ولابد فيها من جهود متضافرة، الأسرة والمسجد والمدرسة والصديق الصادق، حتى يكبر النشء أفراداً صالحين يعودن بالنفع على أنفسهم وأوطانهم.

---

[٨] – مؤتمر تفسير سورة يوسف / عبد الله العلمي.

فعندما يترك الأب ولده فريسة سهلة لوسائل الإفساد المرئية والمسموعة وعندما يتلاشى دور المربي في المسجد، والمعلم في المدرسة، حينئذ تربى الشباب في الأزقة وعلى النواصي، فلا عجب من انحدار الأخلاق وانتشار الانحلال والفوضى.

٥) ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ... ﴾

الرؤيا ثلاثة أقسام: رؤيا من الله، وحلم من الشيطان، وحديث نفس. قال صلى الله عليه وسلم: " إذا اقترب الزمان لا تكاد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدِّث المرء نفسه..." (٩).

٦) ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾

ماذا يفعل من رأى رؤيا؟

قال صلى الله عليه وسلم: " فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى أحدكم ما يكره، فليتفل عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرِّها فإنها لا تضره " (١٠).

وفي رواية مسلم: " فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصلِّ ولا يحدث بها الناس "

وقال صلى الله عليه وسلم: " الرؤيا على رِجل طائر ما لم تُعبَّر، فإذا عُبرت وقعت، ولا تَقصُّها إلا على واد (محب) أو ذي رأي "(١١).

٧) ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ... ﴾

التحذير من الكذب في الرؤيا، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " مِن أفرى الفِرى أن يُرِي عينه ما لم تَر " (١٢).

٨) ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ... ﴾

الرؤى الجميلة حالة شريفة تدل على شرف أصحابها وكرامتهم ففي الحديث: " لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له " (١٣).

---

٩ – رواه مسلم.

١٠ – متفق عليه.

١١ – رواه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني.

١٢ – رواه البخاري.

١٣ – رواه مالك في الموطأ بهذا اللفظ وروى نحوه البخاري وغيرهما.

٩) ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ... ﴾

الرؤى لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً ولا تستنبط منها الأحكام. وإنما يجب عرضها على الضوابط الشرعية، فمن رأى أنه يقتل أو يزني عياذاً بالله فلا يصح له مواقعة ذلك، ومن رأى النبي صلى لله عليه وسلم في منامه يقول له: غداً رمضان، فلا يحل له الصوم إلا بثبوت الرؤية شرعاً، وذلك من الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها الصوفية!!

١٠) ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

الأحد عشر كوكباً: إخواته، والشمس: أمه، والقمر: أبوه.

ففي تقديم الشمس (الأم) على القمر (الأب): " وجوب بر الأم وزيادته على بر الأب " (١٤).

والسجود: سجود التحية والتعظيم الذي نسخته شريعتنا، بحديث: " لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها " (١٥).

١١) ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

فإن قيل: لِم لَمْ ير يوسف ما أصابه من شر كإلقائه في الجب والسجن وفتنة المرأة ونحوها؟

الجواب: أن الأفضل فيما كان من قِبل الخير أن يُبشر به الإنسان قبل حصوله لكي يتلذذ بالأمل بحصوله، وأما ما كان من قبيل الشر فالأوفق ألا يشعر به أولاً لئلا يتنغص به قبل وقوعه، وقد قيل: (الوقوع في الشر ولا انتظاره).(١٦)

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) ﴾

١) ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾

هذه الآية أصل في ألا نَقُصَّ الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ولا على من لا يُحسن التأويل فيها (١٧).

٢) ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾

---

١٤ – المحرر الوجيز لابن عطية.

١٥ – رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع.

١٦ – مؤتمر سورة يوسف: عبد الله العلي.

١٧ – الجامع لأحكام القرآن / القرطبي.

فيه الأمر بكتمان النعمة حتى تتم وتظهر، ففي الحديث: " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود " ([18]).

٣) ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

علم يعقوب عليه السلام بنفسية أبنائه، فهكذا ينبغي أن يكون الآباء مع أبنائهم، والمربين والمعلمين مع تلامذتهم، ولتحصل المعالجة ويسهل التعايش.

٤) ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

وقوع الحسد بين الأخوة والأقارب فكيف بغيرهم، فينبغي الحذر، بالتحصينات الشرعية، وإخفاء النعم عمن يُظن غيرَتُه.

٥) ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

نصيحة، وليست غيبة محرمة؛ لأن من مواطن جواز الغيبة التحذير كما هو هنا.

٦) ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

لم يقل له: إن إخوتك يكرهونك، أو يغارون منك، أو قوم سوء، و نحو ذلك، بل وجَّه الشر المتوقع حصوله، للعدو الحقيقي، الشيطان الرجيم الذي يسعى بكل قواه أن يُفرِّق الصنوف ويُفسد بين الأحبة، وللأسف ينساق الأحبة وراءه دون التفات لعداوته.

٧) ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

لم ينس يوسف هذا الدرس الذي لقنه له أبوه، وإنما ذكره بعد أربعين سنة قائلاً: ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾.

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾

١) جلسة إيمانية تربوية أبوية يا ليتها تعود بين الآباء والذرية

٢) ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

ينبغي أن نغرس في قلوب أبنائنا أن الفضل كله لله، فما برز من برز ولا تقدم من تقدم ولا نجح من نجح إلا بمحض فضل الله، فهو الذي يجتبي، وهو الذي يعلم وهو الذي يهدي ويُسَلِّم.

٣) ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

تحصيل العلم المقرِّب من الله، والمعرِّف به والهادي إليه اجتباءٌ لا يُوفق له كل أحد.

---

[18] – رواه الطبراني في الصغير وصححه الألباني في صحيح الجامع.

٤) ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

من علم أن الاجتباء والاصطفاء والفضل إنما هو من الله، لن يحسد أحداً على نعمة أنعم بها الله.

٥) ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ... ﴾

لا اجتباء إلا بابتلاء.

٦) ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ العابد يسأل الله النعمة، والعالم يسأل الله تمامها ونفعها.

العابد يسأل الله الولد، والعالم يسأل الله الولد الصالح.

العابد يسأل الله الرزق، والعالم يسأل الله الرزق الطيب.

العابد يسأل الله طول العمر، والعالم يسأل الله طول العمر وحسن العمل.

وهكذا، فتنبَّه.

٧) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

تأمل: كيف يُعلم يعقوب ولده أسماء الله الحسنى، لتبقى مستقرة في نفسه، فإذا وقع في ابتلاء، تذكر أن الله تعالى الذي أحبه واصطفاه هو الأعلم والأحكم فتطمئن نفسه فلا يلتجئ إلى غير العليم الحكيم.

٨) وتأمل كيف لُطف الله: أن هذا الفتى ما غادر حجر أبيه إلى بلاد الشرك إلا بعد أن تَشَرَّب عقيدة التوحيد، وهذا بذاته أعظم اللطف، ولولا ذلك لاحتاج هناك إلى المربي وأين يجده؟

وهنا تظهر فائدة التربية في الصغر.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) ﴾

١) تخيل كمَّ الفوائد والدروس والعبر والحكم والدلالات، في قصة يوسف إذا كان الله جل جلاله هو الذي قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ ﴾.

٢) تدبر.. تفكر.. تأمل.. قف..عش.. تنفتح لك الآيات.

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) ﴾

١) ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

هذا هو المبدأ لكل حاسد، وحسد: لماذا هو وليس أنا؟ وبعده تبدأ المكائد!! مع أن الجواب على هذا التساؤل يسير، قدر الله أولاً، ثم ابحث عن الأسباب التي وراء ذلك ثانياً.

٢) ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾

فليحرص الأبوان قدر الاستطاعة ألا يُظهروا حُب بعض أبنائهم على الآخر.

٣) ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾

هل كان يوسف فعلاً أحب إلى أبيهم منهم؟ الجواب: نعم

فَلِم؟

الجواب:

١- الحب شيء فطري لا يملكه الإنسان.

٢- صغر السن، فكما قيل لامرأة: من أحب أولادك إليك؟ قالت: المريض حتى يُشفى، والمسافر حتى يعود، والصغير حتى يكبر.

٣- الخُلق الكريم الذي كان عليه يوسف عليه السلام، فقد كان كلٌّ من يراه يصفه بالإحسان: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

٤- الرؤيا التي رآها فقد علم أنه سيكون نبياً، فازداد حرصه عليه ورعيُه له.

٤) ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾

لا يُلام الإنسان إذا أحب أحد أبنائه أكثر من غيره ولكن يلام إذا لم يعدل بينهم في العطاء والتعامل ونحوهما.

٥) ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾

لاحِظ: لم يذكروا أنه ظلمهم أو سلبهم بعض حقوقهم – وحاشاه – وهنا تظهر جنايتهم ويبدو حسدُهم.

٦) ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾

الحسد سببٌ لكثير من البلايا والحوادث، بداية من العداوات، والخصومات، انتهاء إلى القتل والكفر، فقد قتل قابيل هابيل حسداً، وكفر إبليس وخرج من جنة الخلد حسداً!!

٧) ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾

الحسود لا يسود، لما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له، لم يرض سبحانه، حتى أقامهم بين يدي يوسف – عليه السلام – وخروا له سُجداً، ليعلموا أن الحسود لا يسود ".

٨) ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

متى كانت الكثرة محمودة؟! العبرة بالأخلاق القويمة والخصال الحميدة.

٩) ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

هذا عقوقٌ، حين يتهم الولد أباه بالسوء – وإن كان فيه – فكيف إذا لم يكن فيه؟

١٠) ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

عندما تتكلم، لاحظ عبارتك، هل هي لائقة أم لا؟ إن كانت لائقة فأخرجها وإلا فاحبسها.

١١) ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

عند المقارنة بين أدب يوسف مع أبيه، وبين غيره، نلمح سبباً آخر من أسباب محبة يعقوب ليوسف، عليهما السلام.

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

١) ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

هل تتخيل إخوة – أحدَ عشر رجلاً بالغين – يجتمعون على طفل ليقتلوه أو ليطرحوه أرضاً، وهو أخوهم الصغير، بلا ذنب أتاه ولا جريمة ارتكبها!! كيف تحملت نفوسهم هذه الغلظة؟ كيف غابت عقولهم وهم يمارسون هذا الإجرام؟ إنه الحسد ولا تسأل بعد ذلك.

٢) ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

تفكير غير سليم! فمتى أوصل التخطيط القبيح، والمكر السيء صاحبه إلى ما يريد؟ بالعكس ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ فاطر: ٤٣.

فتأمل: لما امتدت أيديهم إليه بالظلم، امتدت إليه بالسؤال والطلب، أرادوا إلحاق الضرر به!! فلحقهم الضرر ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ يوسف: ٩٠

٣) ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

الغاية لا تبرر الوسيلة، فلا تسرق لتتصدق، ولا تكذب لتنجو، ولا تقتل لترث....!! وإنما سر في الطريق القويم تصل إلى مبتغاك، كن لله ما يريد يكن لك فوق ما تريد.

٤) ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

حب الظهور والتنافس عليه يؤدي إلى إضمار الشر والتخلص من الأقران.

٥) ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

من أعظم ما يحتاجه الأبناء أن يرو وجه أبيهم مقبلاً عليهم معتنياً بهم، فهل نعي ذلك؟

٦) ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

التوبة الظاهرة [المبيَّتة] توبة خبيثة يوحيها الشيطان إلى أوليائه يُسَهِّل بها عليهم المعاصي، وهو يعي أنهم لن يتوبوا فهل نعي ذلك؟

٧) ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

من قال: أفعل المعاصي ثم أتوب!! فهل يضمن:

١- أن يعيش إلى أن يتوب؟

٢- أن يوفق إلى التوبة؟

٣- أن تُقبل توبته؟

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾

١) ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾

من بين الأحجار القاسية قد تجد حجراً رقيقاً ذا ملمس ناعم؛ لكن التحجر لم يزل فيه.

٢) ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

لأن القتل جريمة شنيعة لا ينبغي ارتكابها بحال ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئاً ﴾ النساء:

٣) ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

القائل أبرهم وأحناهم على يوسف، وإن كان قد اشترك في الجريمة؛ لكن الإنصاف يقتضي القول بأن بعض الشر أهون من بعض.

٤) ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

تقليل الشر مرتبة من مراتب الخير، إذا كان الشر واقعاً ولابد.

٥) ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

من حفظه الله، ما ضره لو ألقاه الناس، أسقطوه في البئر فرُفع على عرش الملك، فلو أجمع من حولك على الكيد بك فلن يكون إلا ما أراده الله لك.

٦) ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

اقتراح، ولكنه غيّر مسار القصة، فلا تحقرن فكرة أو رأياً لك أو لغيرك.

٧) ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

التقاط اللقيط فرض كفاية، وهو مسلم حر، وإن كان معه مال أنفق عليه منه، وإلا فمن بيت المال، وإذا مات و لم يُخلِّف وارثاً ورثه بيت المال.

٨) ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

فيه إشارة إلى أن الأولى ألا تفعلوا شيئاً من ذلك، وأما إن كان ولابد فاقتصروا على هذا القدر ([١٩]).

٩) لاحظ: " لم يُذكر أحدٌ منهم باسمه ستراً على المسيء وكلٌّ منهم لم يخل من الإساءة وإن تفاوتت مراتبها "([٢٠]).

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾

١) ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾

كاد المريب أن يقول: خذوني، اتهموا أنفسهم قبل أن يُتهموا، فما من شخص يُضمِر السوء والشر إلا أظهره الله، إما بتقاسيم وجهه أو فلتات لسانه أو بعض تصرفاته.

٢) ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

أتذكر كيف أوهم إبليس اللعين آدم وحواء أنه ناصح لهما ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ الأعراف: ٢١.

٣) ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

إياك أن تغتر بمن يزعم النصح حتى تعرض نصحه المزعوم على أمر الله، ثم تعرضه على فعله وسلوكه لتعلم حقيقة النصح من الغش.

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾.

١) ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾

لم ينكر والدهم ذلك، بل أرسله معهم، مما يدل على مشروعية اللعب البريء، وحاجة الأبناء إليه، وهذا يرسم منهج الوسطية بين الذين اتخذوا حياتهم لهواً ولعباً، وبين الذين تشددوا وغلوا وحرّموا زينة الله التي أخرج لعباده، فلا يجوز تحريم اللعب باطلاق أو تحليله دون ضابط ([٢١]).

٢) ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾

---

[١٩] – أحسن القصص / عبد العظيم بدوي.

[٢٠] – الألوسي في التفسير.

[٢١] – ليدبروا آياته.

حتى أبناء الأنبياء يحبون اللعب... فلا تقتل فرحة ولدك.

٣) ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

قالوا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وهم يُضمرون التخلص منه، ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا ﴾ وهم يُضمرون زعزعة الأمن!!

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " اللهم إني اعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة " [٢٢].

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾.

١) اعتذر إليهم بعذرين:

أحدهما: عاجل في الحال، وهو ما يلحقه من الحزن لمفارقته، وكان لا يصبر به ساعة.

والثاني: خوفه عليه من الذئب إن غفلوا عنه برعيهم ولعبهم إذ يَقِلّ اهتمامهم بحفظه وعنايتهم به فيأكله الذئب ويحزن عليه الحزن المؤبد [٢٣].

٢) ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾

أحيانا تلقّن الغادر حجته بنفسك، وأنت لا تشعر، والسبب قلبك الأبيض فتنبه.

قال ابن كثير: " فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه " [٢٤].

٣) ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾

الانغماس في اللعب قد يوقع الغفلة، ولقد أدرك أعداء الإسلام هذه الحقيقة فأغرقوا المسلمين في الملهيات المتلاحقة، فلا يكاد المرء يُفيق أو يقصد سواء الطريق.

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) ﴾.

١) وصدقوا، فالظلم خسارة فادحة، ولعبة فاجرة، وحسبك أنه ظلمات في الدنيا وفي الآخرة.

٢) وفعلوا فعلتهم الشنيعة!! لكن سبحان الله.... لا تدري أين الخير.

فقد كان غيابه عن أبيه سبباً في رفعته وتمكينه، وقد كان حِفظُ الله له أعظمَ من حفظ أبيه له، وتربية الله له أكمل وأتم من تربية أبيه له، فليفوِّض العبد أمره إلى الله في حفظ نفسه وأهله وولده وماله وشأنه كله.

---

[٢٢] – رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وحسنه الألباني.

[٢٣] – البحر المحيط / أبو حيان.

[٢٤] – تفسير ابن كثير.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾

١) تأمل قسوة البشر: ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾.

وتأمل رحمة رب البشر: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فمهما قسا عليك من حولك، لا تحزن، بل تذكر أن لك رباً رحيماً لطيفاً بك، ففي الوقت الذي اجتمعت على يوسف الظلمات ظلمة البئر، وظلمة الوحدة، ظلمة حقد إخوته وصدمته فيهم، ظلمة فراق الأب، في ظل هذه الظلمات، يأتيه الوحي من السماء ويهدئ من روعه، ويقول له لا تحزن، ستنجوا من هذا الحدث، ستخرج من هذا المأزق، ستمر هذه الأزمة، وستجتمع بهم يوماً ما، وقد رفعك الله عليهم، وستُذَكِّرهم فعلتهم القبيحة.

٢) ما من شخص يُظلم ويُجار عليه إلا ويرى ما الله صانع بمن ظلمه ولو بعد حين.

٣) إذا أراد الله شيئاً لن يتغير مهما حاول المغيرون أو أجمعوا على تغييره، أرادوه أن يكون أسفل فرفعه الله عليهم، أرادوا له الإهانة، فجعله الله ملكاً كريما، أرادوه إلى وحشة وانقطاع فكان الوحي أنيسه وجليسه، فما أراده الله كان وما لم يُرد لم يكن.

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) ﴾.

١) وكما تقول العامة: " يقتل القتيل ويمشي في جنازته "

قال القرطبي: " هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتماله أن يكون تصنعاً فمن الخلق من يقدر على ذلك....."[٢٥].

٢) ولماذا عشاءً؟ لأنها تمثيلية!! ولو جاءوه في وضح النهار لظهر مكرهم؛ لكن فراسة المؤمن لا تخيب، وقلبه لا يكذب.

٣) القلوب القاسية قادرة على أن تنتج دموعاً شبيهة بدموع الحزانى، تذكر تاريخ الباكي ودعك من ملامحه.

٤) عندما تكون بموقع يتطلب منك حكماً عادلاً، فدع عاطفتك جانباً ولا تلتفت لمن يذرف الدموع، فأغلبها مخادعة [٢٦].

---

[٢٥] – الجامع لأحكام القرآن

[٢٦] – موقع حصاد.

وقد رُوي أن امرأةً تحاكمت إلى شريح، فبكت، فقال الشعبي: يا أبا أمية! أما تراها تبكي؟ فقال شريح: لقد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كَذَبة، لا ينبغي لإنسان أن يقضي إلا بالحق.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾

١) ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾

بالأمس القريب زعموا أنهم له ناصحون، وأنهم له حافظون، وأنهم يريدونه ليرتع ويلعب، وهم الآن يُصرِّحون أنهم تركوه.

٢) ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾

ما أقسى هذه القلوب، وما أظهر هذا العقوق!!

حين يفجعوا قلب أبيهم بهذا الخبر المفزع، أما قالوا: ضل الطريق، لم نجده، أو نحو ذلك؟

٣) ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾

كاد المريب أن يقول خذوني، للمرة الثانية، في مشهدين متقاربين:

الأول: مالك لا تأمنا على يوسف، والثاني: وما أنت بمؤمن لنا...

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾.

١) ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾

مهما كان الكذاب عبقرياً لابد أن يترك وراءه دليل إدانته، فلو كان الدم دمَ يوسف لكان القميص ممزقاً.

ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: " لو كان الذئب لَخرق القميص ".

وجاء عن قتادة والسُّدِّي: إن يعقوب قال: إن هذا لسبعٌ رحيم " (٢٧).

٢) ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾

بل خطةٌ دبرتموها ومكرٌ مكرتموه!!

كيف يأكله الذئب، و لم تسجد له الكواكب بعد؟ ولا الشمس والقمر؟!

---

٢٧ تفسير ابن أبي حاتم.

٣) ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾

المؤمن يثق بما عند الله أكثر من ثقته بما تراه عيناه.

٤) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

لأصبرن على هذه المحنة مستعيناً بالله على ذلك،(وما صبرك إلا بالله)

٥) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

الصبر الجميل: هو أن يكون لله، ولا يُشكى فيه الله، وأن يكون في أوانه، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ.. ﴾ الرعد: ٢٢

وقال تعالى:- في الحديث القدسي -: " إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يَشكني إلى عواده أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل " (٢٨).

٦) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

والصبر الجميل لا ينافيه الشكوى إلى الله، كما قال يعقوب بعد ذلك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ كما لا ينافيه الحزن ودمع العين،كما قال صلى الله عليه وسلم – عند وفاة ابراهيم – " إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون " (٢٩).

٧) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

ما حيلة المكروب إلا الصبر؟ هل يوجد حل آخر؟ فإذا زاد البلاء بالمؤمن وشعر بنفاد صبره فليسأل الله أن يُمدَّه بصبر آخر، حتى ينتهي هذا الطريق الشاق.

٨) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

الصبر الجميل، نهايته حسنة جميلة

الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقه لكن عواقبه أحلى من العسل.

٩) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

استعمل هذه الكلمات الجميلة في أحزانك وأوجاعك وآلامك تزل بإذن الله، كما استعملت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين اتُهمت في عِرضها وتحدث الناس في عفتها وأتاها النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا عائشة إنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرِّؤك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب

---

٢٨ – رواه الحاكم والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع والترغيب والترهيب.

٢٩ – رواه البخاري ومسلم.

تاب الله عليه "، قالت: فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أُحِسُّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله عني فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله فيما قال، فقالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله،

فقلت – وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً –: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة،، لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف – ونسيَت اسمه – حين قال:﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ " ([30]).

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾.

١) ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ قرأ كثيرٌ من القراء ﴿ يا بشراي ﴾ ([31]).

فقد يستبشر بك البعيد ويتنكر لك القريب ولا يُترلك مترلتك فأبشر.

٢) ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾

حقيقة كلِّ عبد عند الله، لا عند الناس، فيوسف ظنوه بضاعة وحقيقته نبيٌّ كريم ومِلك عظيم!! فما حقيقتك عند الله؟!

٣) ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾

إن حوصرت في زاوية مظلمة، وضُيِّق عليك، فتذكر أن يوسف عليه السلام حوصر هذا الحصار وبيع بضاعة وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

٤) ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾

أسرُّوه: ولكن كشف الله سرّهم في كتاب نزل من السماء، فكم من سِرٍّ أسررته سيكشفه الله يوم القيامة في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إذا لم تتب منه.

٥) ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

---

[30] – رواه البخاري ومسلم.

[31] – انظر فتح القدير.

لا يخفى على الله تعالى أمر يوسف، وما يُصنع به، وهو سبحانه وتعالى قادرٌ على دفعه ولكن يُملي للظالمين ويرفع درجات المتقين.

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾

١) ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

حين تعلم أن الذين باعوه، وبثمن بخس، إخوته، سيهون عليك ما يصيبك من ابتلاءات.

٢) ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

لا تحزن إذا لم يعرف الناس قدرك، فالله يعرف قدرك وسيرفعك يومَ ﴿ خافضة رافعة ﴾ الواقعة:

٣) ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

قال ابن عباس: كل بخسٍ في القرآن فهو النقص، إلا هذا فإنه الحرام؛ لأن ثمن الحرام حرام.([٣٢])

وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: " ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة،رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، و لم يُعطه أجره "([٣٣]).

٤) ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

وذاك دليل على ان الذين باعوه إخوته، فأما السيارة فباعوه بثمن عظيم، وحسبك أن الذي اشتراه عزيز مصر، وإذا أردت أن تعرف قيمة سلعة فانظر من يشتريها.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾

١) ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

وهذا مظهر واضح من مظاهر لطف الله تعالى بيوسف، يُمهد الله له به ما سيعطيه من خيري الدنيا والآخرة، إذ الرقيق لم يكونوا يُعاملون هكذا.

٢) ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

من الناس من تعرفُ معدنه من أول وهلة.

---

[٣٢] – مفاتيح الغيب / الرازي.

[٣٣] – رواه البخاري.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: العزيز لما قال: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ وابنة الرجل الصالح لما قالت عن موسى:(يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)القصص (٢٦)، وأبو بكر لما جعل عمر مكانه عند وفاته رضي الله عنهما (٣٤).

٣) ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

تأمل كيف نقله الله تعالى من بيتٍ تعرض فيه للقتل إلى بيت توفرت فيه كل أسباب الراحة والرغد والنعيم ووسائل التعليم، وكان قريباً من مراكز صناعة القرار، فتعلّم الكثير من أحوال البلد وعقلية الإدارة، فلا تحزن على ما فاتك فإن ما عند الله أفضل.

٤) ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

إذا أراد الله إكرام عبدٍ سخّر له من يرعاه.

٥) ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر، ولا منصبه، ولا اسم امرأته؛ لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ وإنما قصص وحِكم ومواعظ وعبر وتهذيب (٣٥).

٦) ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

كان التبني مشروعاً من قبل، وقد تبنى النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة، فكان يُنادَى بزيد بن محمد، حتى نهى الله تعالى عنه، ونزل قوله: ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإلم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ الأحزاب: ٥.

٧) ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

العليم الحكيم، السميع البصير، القادر سبحانه وتعالى، الذي قَيَّض العزيز وامرأته يُحسنان إلى يوسف ويعتنيان به، وهو الذي مَكّن له في أرض مصر.

٨) ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

إذا أراد الله شيئاً فإنه يُهيء له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد، ولا يقدرون – ولو اجتمعوا – أن يقفوا أمامها.

٩) ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ.. ﴾

سبحان من جعل الرِقّ بوابة للتمكين.

١٠) ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾

---

٣٤ – رواه الطبري في التفسير.

٣٥ – تفسير المنار / محمد رشيد رضا.

أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد.

١١) ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾

فهل يمكن لمظلوم أن يحزن أو يدب اليأس في قلبه وهو يقرأ في قرآن ربه تلك الحقيقة الناصعة وهذا الضمان الإلهي: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ فرغم المكر والظلم والإبعاد والمؤامرة التي تعرّض لها يوسف إلا أن الله مكن له في الأرض وجعله فوق من ظلمه وأعطاه من فضله الواسع ما لم يكن في حسبان أحد (٣٦).

١٢) ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

أن إرادة الله ماضية، وأن أمره هو الذي يكون، والسبب في عدم علمهم: اهتمامهم الأكبر بدنياهم وحياتهم.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾

١) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

الأشد: هو وقت استكمال القوة، ثم يكون بعده انقصان، وذلك يكون فيما بين الثالثة والثلاثين والأربعين، والحكم: النبوة، والعلم: الشريعة (٣٧).

٢) ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

هذا الجزاء – الإكرام والتمكين والحكمة – عامٌ في كل مؤمن أحسنَ، فبقدر إحسان العبد يكون جزاء الرب له، فالخطاب يتناول يوسف ومحمداً صلى الله عليه وسلم، ويتناول غيرهما؛ لأن القرآن كتاب هداية، فعمومه لا يُخصّص بالواحد والاثنين (٣٨).

٣) ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

من الطرائق الموصلة للحكمة والعلم: إحسان العبادة لله، والإحسان لمن حولك من الخلق.

٤) ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

" أعطي يوسف شطر الحسن " (٣٩)، ومع ذلك لم يمدحه الله تعالى مرةً واحدة بجماله وإنما مدحه مراراً بخُلُقه وإحسانه.

---

٣٦ – ملحمة الصمود / أحمد الشحات / بتصرف.

٣٧ – أحسن القصص..دروس وعبر / عبد العظيم بدوي.

٣٨ – أيسر التفاسير / الجزائري.

٣٩ – رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾

١) ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾

سبب هذه المراودة، وسائر المراودات التي تقع في الكون: الاختلاط والخلوة المحرمان، كم جرا من مصائب، وكم أدخلا على البيوت من ويلات ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إياكم والدخول على النساء " فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت " (٤٠).

ومعنى " الحمو الموت ": أي الهلاك، والحمو: قريب الزوج كأخيه وابن عمه ويدخل في ذلك أصدقاؤه طبعاً.

قيل لامرأةٍ من العرب: " ما حملك على الزنا مع فضل عقلك؟ قالت: طول السواد، وقرب الوساد " (٤١).

٢) ﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

لم يقل ﴿ سيدته ﴾ أو ﴿ امرأة العزيز ﴾ استنكاراً لصنيعها، فمثلها لا تستحق شرف السيادة.

٣) ﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

إنما قال: ﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها " (٤٢).

٤) ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾

إشارة إلى كثرة الأبواب وإلى إحكام الغلق.

قال القرطبي: " كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها " (٤٣).

٥) ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾

ما أقل إيمان من يختفي عن العيون كي لا تراه، ويجعل الله أهون الناظرين إليه.

٦) ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

---

٤٠ – رواه البخاري ومسلم.

٤١ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.

٤٢ – فتح القدير / الشوكاني.

٤٣ – الجامع لأحكام القرآن.

أي هلمّ أسرع إلى فراشي، فليس هناك ما يُخشى!!

تُرى كم من المحاولات الخفية المستترة التي سبقت هذا الطلب الفج الصريح؟

٧) ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

المرأة هنا هي السبب، ومما يؤكد هذا تقديم ذكر الزانية على الزاني في قوله: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ النور ٢. قال ابن عاشور: لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل وبمساعفتها يحصل الزنا، ولو منعت المرأة نفسها، ما وجد الرجل إلى الزنا تمكيناً.." (٤٤).

٨) ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

امتنع يوسف عن الفاحشة وأباها متعللاً بثلاث علل:

الأولى: معاذ الله: الالتجاء إلى الله، والاحتماء بجنابه والتحصن بعصمته، فوالله لا يُنجي من مثل هذه المواقف إلا الله.

الثانية: إنه ربي أحسن مثواي: فمن الأمور الثابتة عند أولي العقل والأخلاق: أن يحفظ الإنسان حق من أحسن إليه، فالحرّ يراعي وداد لحظة، والغادرلا يكفيه الكثير!!

الثالثة:﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾: حقيقة غير قابلة للتبديل، وإن تأخر ظهورها، فالله تعالى لا يكتب الفلاح لمن يعتدي على محارمه وينتهكها.

فلاحظ كيف أن يوسف عليه السلام راعى حق الله، وحق الخلق، واستعان على ذلك بالله.

٩) ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

إذا عَلِم الذي يَقْدُم على الفاحشة ومقدماتها أن عليه بعد حق الله تعالى حقاً للمخلوقين من أهل هذه المرأة من أب، وأخ، وزوج، وابن، وغيرهم، ولا سبيل إلى التحلل منهم غالباً، امتنع عن ذلك.

١٠) ما أعظم صبر يوسف عليه السلام على ذه المحنة، فإن صبره صبرٌ اختياري – بخلاف الصبر على أقدار الله المؤلمة فإنه صبرٌ اضطراري – مع قوة الداعي، فإنه:

- كان شاباً، والشباب مُركّب من الشهوة.
- وكان عزباً، ليس عنده ما يعوضه.
- وكان غريباً، والغريب يفعل في دار الغربة ما لا يقدر عليه بين أهله ووطنه.
- وكان عبداً، لا يأنف مما يأنف منه الحرّ.

---

٤٤ – التحرير والتنوير.

- والمرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى.
- والمرأة هي الطالبة،فلن يتكلف كثيراً.
- وكان في بيتها وتحت سلطانها، فقد أخذت الحذر وغلقت الأبواب.

فمع ذلك كله، خاف الله، وقال معاذ الله، فهل يرعوي الشباب؟ فهل يقتدي الشباب بالشاب يوسف عليه السلام؟

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾

١) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

ظاهر الآية قد يُفهم منه أن يوسف عليه السلام همّ أن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت أن تفعل معه!!

وهذا خطأ؛ لأن الهم نوعان:

أ- همٌّ مع عزم وتصميم؛ ولذلك يتبعه العمل، كهم امرأة العزيز، ولذلك تأمل كيف راودت، وغلقت، ودعت، وتكلمت، وجذبت ثم هددت وتوعدت.

ب- همٌّ ليس معه عزمٌ ولا تصميم، وإنما هو خاطر قلبي، وحديث نفسي صرفه عنه وازع التقوى، كهمٌّ يوسف عليه السلام.

٢) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

همٌّ يوسف عليه السلام لا معصية فيه؛ لأنه أمرٌ جبلّي لا يتعلق به التكليف، بل مثل هذا قد يؤجر عليه العبد؛ لحديث: " ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة " (٤٥).؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفاً من الله وامتثالاً لأمره، كما قال تعالى: ﴿ واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ النازعات: ٤٠، ٤١.

٣) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

فإن قيل: ألا يقدح ذلك في عصمة الأنبياء؟

---

٤٥ - رواه البخاري ومسلم.

فالجواب: أن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس وخواطر الشهوة الجبليّة، ولكنهم معصومون من طاعتها والانقياد لها، ولو لم توجد عندهم دواعٍ جبلية لكانوا إما ملائكة أو عالماً آخر، ولما كانوا مأجورين على ترك المعاصي لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً " (٤٦).

٤) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

شاعت روايات كثيرة اسرائلية مكذوبة بأن يوسف جلس منها مجلس الرجل من امرأته، فرأى يعقوب أباه عاضاً على أصبعه...!!

كل هذا ونحوه من روايات بني اسرائيل التي فيها مطعن على أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٥) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

كل من كان لهم تعلق بالقصة شهدوا ليوسف عليه السلام بالبراءة من فعل السوء.

فيوسف عليه السلام قال: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ ٢٦،، وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ ٣٣.

والمرأة قالت: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ ٣٢.

وزوجها قال: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ ٢٩.

والشاهد قال: ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ٢٦، ٢٨.

والنسوة قلن: ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ ٥١.

٦) ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

أقاويل كثيرة حول هذا البرهان والصواب أن يقال: "إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان همّ به..." (٤٧).

فالبرهان: الايمان، الخوف، المراقبة، وازع التقوى ،قال شيخ الاسلام ابن تيمية، وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان همّ به وكتب له حسنة كاملة " (٤٨).

٧) ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

الإخلاص لله في العبادة مانع من تسلط الشيطان على الإنسان.

---

٤٦ – محاسن التأويل / القاسمي.

٤٧ – تفسير الطبري.

٤٨ – مجموع الفتاوى.

٨) ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته ما يمنعه من محبة غيره، إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسرّ ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً كما قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٩).

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

١) ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾

ليفرّ بدينه ومروءته، وتهدم دينها ومروءتها.

٢) ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾

المؤمن لا يكتفي بـــ ﴿ معاذ الله ﴾ ثم يقف معرِّضاً نفسه للفتن، وإنما يبحث عن أقرب باب ويهرب.

٣) ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾

الفرار من أماكن السوء من أعظم أسباب النجاة من السوء، ومفارقة أهل الفساد من أعظم أسباب الوقاية من الفساد، واجتناب وسائل الفساد – أياً كانت – اجتناب للفساد، فِرّ، ولو جذبوك من قميصك، وانج بنفسك كما نجا يوسف.

٤) ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾

جذبت قميصه من خلفه فانشق إلى أسفل.

ما هذا الجنون؟

ليس جنوناً ولكنه داء العشق، الذي تسبب فيه الاختلاط والخلوة المحرمين، ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم " (٥٠).

والمعنى: إذا دعت ضرورة لدخول الرجل على المرأة فلابد أن يكون في صحبة محرم للمرأة، فالطبيب والمدرِّس والخاطب ونحوهم، كل هؤلاء لا يجوز لأحدهم أن يخلو بالمرأة إلا عند الضرورة مع وجود المحرم.

---

٤٩ – العبودية / ابن تيمية.

٥٠ – رواه البخاري ومسلم.

ولكنها الثقة التي توسّعت دائرتها!!!

ثقة الرجل في نفسه، وثقة الزوج في امرأته وصديقه، وثقة الأب في ابنته ومعلمها، ويضيع الحياء ويحصل الشر ويقع المحظور، " لا يخلون رجل رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان " ([٥١]).

ولا يقل خطورة من الخلوة، الاختلاط المستهر داخل البيوت، وفي أماكن العمل وغيرها.

كان بعضهم يقول: " لو ائتمنوني على بيت مالٍ لائتمنت، ولو ائتمنوني على جارية سوداء ما ائتمنت.([٥٢])

٥) ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ إن في مصيبة يوسف بقد قميصه فائدة كبرى، وهي براءته مما نُسب إليه، ورُب محنة وسطها منحة.

من عرف الله أزال التهمة وقال كل فعل لحكمة ([٥٣]).

٦) ﴿ وَألفيا سيدها لدى الباب ﴾

وجدا العزيز أمامهما.

كل صاحب معصية معرض لأن يكشف الله سرّه ويفضح أمره مهما بالغ في الاحتياطات وغلّق الأبواب، وقد جرت العادة أن الله عز وجل لا يكشف ستره عن عبده إلا بعد ما يتجرأ العبد على حرمات الله ويستمر في مواقعتها والتلبس بها ([٥٤]).

٧) ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾

سُمي الزوج سيداً لعظيم حقه على المرأة، فأعظم الناس حقاً عليها زوجها.

٨) ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾

و لم يقل الله: سيدهما؛ لأن يوسف بيع ظلماً، فلم تنطبق عليه أحكام الرق؛ لأنه ليس لكافر على مسلم سيادة.

٩) ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾

وكما تقول العامة: " ضربني وبكى وسبقني واشتكى " فليس المشتكِي هو صاحب الحق دائماً فقد تكون الشكوى ضربة استباقية من الظالم، فتنبه.

١٠) ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾

---

[٥١] – صحيح الترمذي

[٥٢] – ذم الهوى / ابن الجوزي / بتصرف.

[٥٣] – مؤتمر سورة يوسف / عبد الله العلمي

[٥٤] – ملحمة الصمود / أحمدا الشحات.

قال القرطبي: " قال العلماء: لما برأت نفسها لم تكن صادقة في حبه؛ لأن من شأن المحب إيثار المحبوب " ([٥٥]).

وهنا يمكن التفريق بين العشق المحرم الذي تسببه العلاقات المحرمة وبين الحب الذي يكون بعد الوزاج.

١١) ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

حددت نوع الجزاء حرصاً على الإبقاء على حياته ودليلاً تقدمه على نفسها من غير وعي على أنها ما زالت تطمع فيه، ففي سجنه أو تعذيبه قد تصل إليه.

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾

١) ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾

لما أغرت به، وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفاع عن نفسه ولولا ذلك لكتم عليها ([٥٦]).

٢) ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾

من الذي جاء بالشاهد؟ جاء به الله.

إذا اتقى العبد ربه جعل له من كل همٍّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب، من صدق الله كان الله معه.

٣) ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾

قيل: كان طفلاً في المهد أنطقه الله، وقيل: كان كبيراً وكان ابن خالها، وأيا كان فقد قيّض الله ليوسف شاهداً له.

٤) ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

قدّم الشاهد قوله: ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ... ﴾ وهو يرى أن القميص قد من دبر، لنفي التهمة عن نفسه، حتى لا يُظن أنه متحاملٌ عى امرأة العزيز لأمر ما، وهذا كقول

---

[٥٥] – الجامع لأحكام القرآن.

[٥٦] – الكشاف / الزمخشري.

مؤمن آل فرعون في شأن موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ غافر: ٢٨.

٥) ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ.... ﴾

ما أعظم هذا الشاهد الذي لم يخش في الله لومة لائم...ما أعظم عدالته، وما أجمل إنصافه، إذ شهد على قريبته، وزوج العزيز، لرقيق عندهم!! ما أتقاه إذ لم يكن للخائنين خصيماً، و لم يدافع عن الذين يختانون أنفسهم، جزاه الله خير الجزاء.

٦) ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

القائل: الشاهد، أو زوجها.

لما قرأ بعضهم قول الله: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦، قال إذن النساء أشد كيداً من الشيطان؛ لأن كيدهن عظيم، وكيد الشيطان ضعيف!!

وهذا فهم خطأ من وجهين:

الأول: لما وصف الله تعالى كيد الشيطان بالضعف كان ذلك في مقابلة كيد الله كما قال الله: ﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦.

الثاني: القائل ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ العزيز أو الشاهد، والقائل: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ الله جل جلاله.

فكيد النساء مهما عظم فهو دون كيد الشيطان؛ لأن كيدهن من كيده، هو الذي أغراهن، وسول لهن، فكيده أعظم حتماً.

٧) ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾اكتم الأمر، ولا تذكره لأحد.﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

إذا ضعفت الغيرة من الرجل، وقل الحزم، حلت المصائب في البيت ودخل الخراب، لم يتخذ العزيز موقفاً يليق بالجريمة، بل اكتفى بتوجيهات عامة ونصائح هزلية، ولهذا عادت امرأة العزيز إلى مراودتها وكررت فعلها وانتشر الخبر في المدينة!!

فمن أمن العقوبة أساء الأدب.

٨) كيف يعيش الرجل بلا غيرة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لا يدخل الجنة ديوث " ([٥٧])

والشوارع المليئة بالمتبرجات الكاسيات العاريات الخراجات الولاجات ثمرة من ثمرات انعدام الغيرة وقلة الحياء وضعف الرجولة.فأيها الآباء....أيها الأزواج...أيها الرجال....أنتم جزء كبير من المشكلة.

٩) ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ.... ﴾

هل كانت مؤمنة حتى تؤمر بذلك؟

قيل: لم تكن مسلمة وإنما المراد اطلبي مغفرة زوجك وعدم مؤاخذته لكِ على ما بدر منك.

وقيل: بل كانت عندهم مفردات إيمانية لمخالتطهم يوسف عليه السلام ودعوته إياهم – بغض النظر هل آمنوا أم لا؟ – ويؤكد ذلك قولها في آخر القصة:﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) ﴾

١) ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

رغم أنها في بداية الأمر، غلقت الأبواب، إلا أن فضيحتها عمت البلد، فلا تأمن مكر الله وأنت تعصيه.

اليوم قد تكون المعصية داخل البيت، فستخرج رغماً عنك إلم تنته.

٢) ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

الخيانات الزوجية والفضيحة جزاءٌ لكل رجل يتهاون في حفظ زوجته أو بناته.

٣) ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾أي دخل حبُّه شغاف قلبها.

بالخلوة والاختلاط ثم إطلاق البصر، يصل الأمر إلى أكثر من ذلك ولهذا جاء الأمر صريحاً للرجل والمرأة على حد سواء ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ النور: ٣٠، ٣١.

---

[٥٧] – رواه النسائي والحاكم وأحمد وصححه الألباني.

فلما كان غض البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ الله به، فقد جعل الله تعالى العين مرآة القلب، فمن غض بصره غض القلب شهوته وإرادته، ومن أطلق البصر دون مبالاة ضاع قلبه وسط الشهوات.

في صحيح مسلم أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر من مزدلفة إلى منى " فلما دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّت به ظُعُنٌ [جمع الجواري] يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله يده على وجه الفضل، فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحول رسول الله يده إلى الشق الآخر على وجه الفضل "

تأمل: كيف كانت طريقة المنع!! لأن العاقبة وخيمة والعقوبة أليمة.

ولما سأل جرير رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة أمره أن يصرف بصره ([٥٨]).

٤) ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

حتى أهل الشر يصفون الشر بالشر، فالحلال بين والحرام بين، وبينهما أمورمشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الحرام.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾.

١) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ.. ﴾

هناك نفوس حقيرة مهمتها في هذه الحياة أن تُسمعك ما تكره، وتنقل إليك التفاصيل المزعجة، فاحذرهم وانهرهم ولا تعطهم الفرصة فهم بريد كل شر.

٢) ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾

تأمل كف وصف الله تعالى نقل الخبر الصادق ونشره مكراً!!

فكيف بنقل الأخبار الكاذبة ونشرها؟!!!

٣) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾

ووجه تسمية الغيبة التي وقعن فيها مكراً؛ لأنها إنما تنشأ عن اختلاس أسرار الناس واستطلاع ما يدور في البيوت بواسطة البحث والتنقيب مع الجواري والعجائز، ولا ريب أن هذا مكر ومنكر.

---

[٥٨] – رواه مسلم.

٤) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ.. ﴾

وسميت الغيبة مكراً كذلك؛ لأن المغتاب لو كان مؤمناً ناصحاً خلوقاً لراح إلى من يريد غيبته ونصحه وجهاً لوجه.

٥) ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ.... ﴾

وهكذا يغلب على النساء المكر.

قال ابن القيم رحمه الله: " فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكراً أبلغ منه.....فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي وكانت هذه من النساء غاية في المكر " (٥٩).

قال الزمخشري: " قصدت بهذه الهيئة وهي قعودهن متكآت والسكاكين في أيديهن أن يُدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها؛ لأن المتكئ إذا بُهت لشيء وقعت يده على يده،فتقوم عليهن الحجة لها " (٦٠).

٦) عندما تتصف المرأة بصفات تشينها خلقاً أو ديناً فإنها تجتهد في توريط بنات جنسها بذلك وبشتى الوسائل، وكذلك رفاق السوء.

٧) ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

هذا حال من رأى نصف الجمال، فكيف حال من رأى وجه خالق الجمال سبحانه جل جلاله؟! فاللهم لا تحرمنا لذة النظر إلى وجهك الكريم.

٨) ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

جمالاً وعفة وطهارة.

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾

١) ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

هكذا الحياء حين يسقط، يقول الإنسان ما يريد، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت " (٦١).

---

٥٩ – بدائع التفسير.

٦٠ – الكشاف.

٦١ – رواه البخاري وغيره.

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

٢) ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

مهما كانت قوة الجذب للمعصية كبيرة ولا تقاوم، فهذا غير مبرر لوقوعك بها؛ لأنك قد تكون سبباً في هذا الجذب ابتداءً، ولم تأخذ بأسباب النجاة انتهاءً.

٣) ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

إنها فضيحة عارمة حين تجاهر المرأة بما يُخدش حياءها، وتتحدث عن سوءٍ مارسته!! فأين الحياء؟ هل مات؟ وأين الغيرة؟ هل قُتلت؟

٤) ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

المرأة الحيّية الكريمة لا تنظر إلى غير زوجها، ولا تتحدث عن غير زوجها، ولا تفكر في غير زوجها ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ الرحمن: ٧٢.

٥) ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

قال الزمخشري: " الاستعصام يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها ([٦٢]).

٦) ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

فيا يوسف هذا العصر استعصم، ولئن كان يوسف قد راودته امرأة العزيز ونسوة المدينة، فإن آلاف النسوة اليوم يرادونك على شاشات الهواتف، وفي الطرقات، يهتفن إليك من قريب وبعيد، ولسان حالهن ﴿ هيت لك ﴾ فاستعصم.

٧) ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

فإن الفتنة شديدة وخطافة، وهنا قال صلى الله عليه وسلم: " فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء " ([٦٣]).

وقال صلى الله عليه وسلم: " ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء " ([٦٤]).

٨) ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

بالالتجاء إلى الله، بالخوف من الله، بالمراقبة، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

---

[٦٢] – الكشاف.

[٦٣] – رواه مسلم.

[٦٤] – رواه البخاري.

٩) ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

وسُجن البريء لكن لم يكن من الصاغرين، بل رفع الله شأنه على العالمين، فالظَلَمة في كل عصر ومصر يقدرون على السجن لكن لا يقدرون على سلب السعادة، قيل: ولهذا جاء ﴿ ليسجنن ﴾ بالمثقلة، و ﴿ ليكونن ﴾ بالمخففة.

١٠) ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

وهكذا الظالم، لا يتحرك جهراً إلا إذا أخذ الضوء الأخضر من المجتمع، كما قال فرعون: ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ هو لا يحتاج تفويضاً أو إذناً، إنما يحتاج الموافقة في الرأي حتى يجهر بالسوء والتبجح دون لأئم.

١١) ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ... ﴾

ما أسوأ الإنسان وأحقره عندما يعرف أنه على باطل ومع ذلك يتمادى، وكأنه يتعجل غضب الله!!

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾.

١) ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

تأمل كيف أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين: إما فعل معصية وإما عقوبة دنيوية، أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة " ([٦٥]).

٢) ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

قال الرازي: السجن غاية المكروهية، وما دعونه إليه في غاية المطلوبية، فكيف قال: المشقة أحبّ إليّ من اللذة؟

والجواب: أن تلك اللذة كانت تستعقب آلاماً عظيمة، وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة، وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة، فلهذا السبب قال: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

٣) ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

---

[٦٥] – تفسير السعدي.

من احتمل الهوان والأذى في طاعة الله، على الكرامة والعز في معصية الله كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً. ([٦٦]).

٤) ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

قارن بين ذلك وبين كثير من الشباب اليوم فقد يبذل أحدهم وسعه وماله ليحصل على شهوة!! فكيف إذا جاءت له في سهولة ويسر؟!

فكيف إذا هُدد بالسجن إن لم يفعلها؟! لكن:

الصالحون يبذلون حريتهم حتى لا يُمس دينهم.

٥) ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

قال أبو حيان: أحب: ليست على بابها من التفضيل؛ لأنه لم يُحب ما يدعونه إليه قط، وإنما هذان شران، فآثر أحدهما على الآخر، وإن كان في أحدهما مشقة، وفي الآخر لذة ([٦٧]).

٦) ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

لاحظ: قال: أحب إليّ مما يدعونني إليه، و لم يقل الزنا!!

لأن المؤمن عفيف اللسان، لا ينطق إلا بما حسن.

٧) ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾

أما كيد امرأة العزيز فظاهر، وأما كيدهن، فقيل: إنهن كن يحثثنه على المطاوعة، ويُحذرنه من المخالفة، وقيل: كانت كل واحدة منهن تخلو به وحدها وتدعوه إلى نفسها، فياله من بلاء عظيم!! قابله يوسف بصبر عظيم!!

٨) ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾

يا لها من استعانة بالله، فالعبد بدون حفظ الله له لا شيء، بدون معية الله ضائع، بدون حماية الله ضعيف.

٩) ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾

قد يخونك قلبك أمام المغريات، فسل من يملك قلبك أن يلهمك الثبات.

١٠) ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

---

[٦٦] – مجموع فتاوى ابن تيمية رحمه الله.

[٦٧] – البحر المحيط

لأن الميل إليهن جهل؛ لأنه يكون قد آثر لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا على هذا فمن أجهل منه؟ ([٦٨]).

١١) ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

فالجهل الحقيقي في تقديم الهوى على الهدى، وأن الله ما عصي إلا بجهالة.

١٢) تأمل: ضلال هذا الاجتماع النسائي الماكر، تجد يوسف عليه السلام ساكتاً لم ينطق معهن ببنت شفة، وهكذا العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة إليه، لا يتكلم إلا بما يجدي.

١٣) ودخل يوسف السجن هروباً من المعصية، وخرج منه عزيزاً لمصر، فمن ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾

١) ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾

سرعان ما يستجيب الله لعباده المخلصين.

٢) ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾

لم يقل: وأدخله السجن، مع أن القرآن لم يذكر سبباً ظاهراً لصرف الكيد النسائي سوى دخوله السجن؛ لكن لا تنظر إلى ظلمة المحنة، وما أصاب دنياك، بل انظر إلى ما حصلت من خيرات ورحمات.

٣) ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يسمع من دعاه وناجاه، ويعلم حاجته واضطراره، ويعطيه سؤله ويجيب دعاءه.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) ﴾

١) ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ.. ﴾

تأمل ﴿ ثُمَّ ﴾ الدالة على التراخي، وتعني هنا: تتابع المشاورات واستمرارها ومواصلة المباحثات للخروج من مأزق الفضيحة، فكان المفترض السير في الإتجاه الصحيح ومعالجة الأمور كما ينبغي.

٢) ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾

---

[٦٨] – تفسير السعدي.

الآيات: الدلائل الناصعة، والبراهين الساطعة، والاثباتات القاطعة على صدقه وبراءته، والتي أقر بها الخصم أنفسهم.

٣) ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

أبعد ما رأو الآيات يكون هذا هو القرار؟

إنها الطرق الشائعة للتغطية ليظلوا بعيدين عن مسرح الجرائم التي ارتكبوها، وبالأبرياء ألصقوها!!

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾.

١) فإن قيل: كيف لجآ إليه لتعبير رؤياهما، وهما لا يعرفان أنه من أهل الصلاح أو العلم؟

فالجواب: أهل الصلاح لا يخفون، سيماهم في وجوههم فالناس يحبونهم ويميلون إليهم.

وقيل: " كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه، وإذا ضاق عليه المجلس وسّع له، وإذا احتاج جمع له شيئاً، وكان يجتهد في العبادة ويقوم الليل كله للصلاة " ([٦٩]).

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾

١) ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

ليس ذلك جواباً على سؤلهما؛ ولكن أراد أن يكسب ثقتهما فيه، حتى إذا دعاهما إلى الله ووجههما إلى الإيمان والخير، توجها معه، وذلك من فطنة الداعية ودعائم نجاحه.

٢) ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

وفيه أن العالم إذا جُهلت مكانته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغَرضه أن يُقتبس منه ويُنتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية ([٧٠]).

٣) ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

---

[٦٩] – تفسير البغوي.

[٧٠] – الكشاف / الزخشري.

الاعتراف بالنعم وإضافتها إلى الله سبيل إلى إدامتها وزيادتها.

٤) ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

لاحظ: أن يوسف عليه السلام لم يُحدِّث من معه في السجن عن ابتلاءاته من ظلم إخوته، وافتراء زوجة العزيز عليه وسجنه ونحو ذلك بل ترفّع عن كل ذلك منشغلاً بهمه الأعظم، والدعوة إلى الله، فيوسف في السجن داعية.

٥) ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

يشير من بعيد إلى القوم الذي ربُي فيهم وهم بيت العزيز ومن يتبعونهم، دون تصريح أو تجريح، فالفتيان على دين القوم، وهذا أيضاً من فطنة الداعية ودعائم نجاحه.

٦) ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

إنما قال كذلك تمهيداً لدعوته وإظهاراً أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق به ([٧١]).

٧) ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

تأمل: تأكيد نفي الشرك بقوله: "من شيء" فشيءٌ نكرة في سياق النفي، فيعم كل الأشياء التي تُعبد من دون الله من حجر وشجر وقبر ووثن وإنس وجن وملك وشمس وقمر وكوكب وشياطين وغير ذلك.

ومعنى ذلك أنهم موحدون لله حقاً في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

٨) ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أمثالنا

الهداية للتوحيد الخالص محض فضل من الله تعالى، لم ينله صاحبه بانتمائه لدولة أو إقليم أو قبيلة أو جامعة أو معلم أو غيره، طلبه نوح لابنه، وابراهيم لأبيه، ومحمد صلى الله عليه وسلم لعمه و لم يعطوْه، فالحمد لله على التوحيد الخالص.

٩) ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة الإيمان، وأيم الله لا تعدلها نعمة، وقل من الناس من يلتفت لشكرها.

دخل رجل على سهل بن عبد الله فقال: اللص دخل داري وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله، فلو دخل اللص قلبك وأدخل عليك الشرك وأفسد عليك التوحيد، ماذا كنت تصنع؟

---

[٧١] – البحر المديد / ابن عجيبة الفاسي.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾

١) داعية التوحيد، الداعية إلى الله، لا يحده مكان ولا زمان ولا حال.

٢) لو أن شخصاً نظر إلى ماضيه فوجده مثقلاً بالآلام كما وقع ليوسف عليه السلام لضاقت به الأرض إلا أن يوسف الصديق بقي متألق اليقين وراء جدران السجن، يُذكِّر بالله من جهلوه، ويُبصر بفضله من جحدوه، وذلك شأن أولي الفضل من الناس، لا يفتقدون صفاء دينهم إن فقدو صفاء دنياهم، ولا يهونون أمام أنفسهم لنكبة حلت بهم.

٣) ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾

الداعية الناجح يترفق بمن يدعوهم، ويقترب منهم، ويتوددهم، ولا يشعرهم بشيء من التعالي.

٤) ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

أقرب الطريق لإقناع المخالفين الدخول لهم من باب المنطق.

٥) ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

الذي يستحق أن يكون رباً يُعبد ويُطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار.

٦) ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

تأمل: وجه الاقتران بين هذين الاسمين تجد أن كل من قَهَرَ – سوى الله – فإنه مفتقرٌ لغيره إلا الله فهو الذي يقهر وحده.

٧) ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾

ما أكثر ما يكذب الناس، ثم يُصدقون كذبهم، ثم يتعاملون معه على أنه اليقين الذي من عارضه كان منحرفاً!!

٨) ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾

لا دستور غير الوحي – فالذي أوجدنا من العدم ورزقنا ودبر أمورنا هو الذي نحتكم إليه وحده فيما شجر بيننا ثم لا نجد في أنفسنا حرجاً مما قضى ونسلم لذلك تسليماً كاملاً بلا منازعة ولا ممانعة ولا مدافعة.

٩) ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

إفراد الله تعالى بالعبادة هو التوحيد العظيم الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب.

١٠) ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾

لا تستقيم الحياة والأخلاق إلا بالتمسك بهذا الدين العظيم.

١١) ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

تكرر ذلك في السورة ثلاث مرات ٢١، ٤٠، ٨٦، وذلك لغلبة أمره وعظيم سلطانة وقهره، وعجيب ألطافه، وذلك وغيره يخفي على أغلب الناس.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

١) ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ ﴾

لاحظ أن يوسف عليه السلام لم يُعين من هو صاحب البشري، ومن هو صاحب المصير السيء، تلطفاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء.

٢) ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

تفسير الرؤى ضرب من الفتوى، لايحل القول فيها بغير علم.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

١) ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

الأصل أن يأخذ الانسان بالأسباب التي توصله إلى العافية، وأن يستعين بمن له القدرة على تخليصه، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق.

وقيل: لو أن يوسف عليه السلام سأل الله العافية من فتنة النساء وفتنة السجن لعافاه، ولله في شئونه حكم.

٢) ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

المأسورن المظلومون منسُّيون عبر التاريخ؛ لكن الله يذكرهم، فاللهم هوِّن عليهم، واجعل ذلك لهم لا عليهم.

٣) ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾

وكأن الله تعالى أراد أن يقطع الأسباب الأرضية كلها عن يوسف عليه السلام، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد، ليبقى قلبه ملتفتاً إلى الله وحده.

٤) ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾

قيل: ولو ذكره في حينها فخرج لرجع خادماً؛ ولكن تأخر بضع سنين ليخرج عزيزاً على مصر، ففي التأخير خير ولطف.

٥) ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

ضريبة النسيان كانت سنين طويلة قُيِّدت فيها حرية نبي من أنبياء الله، ثم لما جاءه بعد ذلك يستفتيه في رؤيا الملك، لم يعاتبه، بل تناسى الأمر بأسره، فياليتنا نتشبه بأخلاق الأنبياء.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾.

١) ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أي ضعيفات مهازيل ﴿ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾

قد تعجب من اهتمام الملك بالرؤيا هذا الاهتمام وكان بإمكانه إهمالها ونسيانها؛ لكن مُقدِّر الأقدار جل جلاله، جعل هذه الرؤيا بداية الانفراجة ليوسف عليه السلام، وإذا أراد الله شيئاً هيأ له أسباباً ليست في حسبان أحد، فليطمئن المؤمن، وليعش هادئ البال قرير العين والحال.

٢) ﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ تُفسرون.

قبل أن تعرض سؤالك أو فتواك أو استشارتك، تأكد من أهليه من تسأل، هل هو من أهل الفتوى أم لا؟

٣) وفي الآية دليل على صحة رؤيا الكافر خاصة إذا كانت متعلقة بمؤمن أو بقضية ذات شأن.

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ الأضغاث: الأخلاط.

١)حين نقول: لا ندري، نقدم خدمة عظيمة، فاعترافهم بجهلهم بالتأويل، قاد للبحث عن يوسف، فكان الفرج ليوسف والغنى للبلاد.

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾

وادكر: تذكر، بعد أمة: بعد مدة.

١) بئس الإنسان الذي لا يعرف غيره إلا عند المصلحة!!

بأي وجه سيقابل ذلك الساقي، يوسف، بعد أن هجره سنوات طويلة كان من الإنسانية والوفاء أن يذكره فيها!!

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾

١) ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾

وصفه بالمبالغة في الصدق حسبما علمه وجرّب أحواله في مدة إقامته معه في السجن، وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمستفتي أن يُعظِّم المفتي.([٧٢]).

٢) لم ينقل لنا القرآن كلمة عتاب واحدة قالها يوسف للسائل حينما أتاه، إما ترفعاً عنه وأن من الناس من لا يعاتب، أو لكرم خلق منه.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾.

١) تأويل الرويا (خطة عمل تفصيلية يمكن من خلالها مواجهة الأزمة القادمة)

- تزرعون سبع سنين متتابعة بجد، فما حصدتم في كل سنة من تلك السنين السبع فاتركوه في سنابله منعاً له من التسوس إلا قليلاً مما تحتاجون لأكله من الحبوب.
- ثم تجيء من بعد تلك السنين السبع المخصِبة التي ذرعتم فيها، سبع سنين مجدبة يأكل الناس فيها كل ما حُصِدَ في السنين المخصبة إلا قليلاً مما تحتاجون للزراعة.
- ثم يجيء بعد تلك السنين المجدبة عام تنزل فيه الأمطار وتنبت الزروع، ويعصر فيه الناس ما يحتاج للعصر كالعنب والزيتون والقصب.

٢) لم يشترط يوسف أجراً على تأويل هذا الرؤيا التي يترتب على تأويلها مصالح العباد والبلاد، كما لم يشترط يوسف الخروج قبل تفسير الرؤيا، ولو اشترط هذا أو ذاك لربما أُجيب؛ ولكنها أخلاق الكبار، الترفع عن الدنايا، والتعلق بالله، والإحسان إلى المسيء.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾.

١) ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾

ماذا يريد الملك؟

---

[٧٢] – تفسير الألوسي

الجواب: يريد أن يرى هذه القدرات الفائقة، وهذا العلم العظيم، ويريد أن ينظر كيف يوجد مثل هذا في السجن؟

٢) ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾

فيه: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع وعلم تعبير الرؤيا وعلم التدبر والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنه والسجن وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الارض فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته ([٧٣]).

٣) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

لماذا رفض الخروج من السجن الذي بقي فيه سنوات طويلة؟

الجواب: العزة والأناة والصبر وحسن التدبر.

لم يقبل يوسف عليه السلام بهذا الإفراج المتخفي دون أن يضع النقاط على الحروف، ودون أن يعترفوا ببراءته وأن كل ما نسبوه إليه كان محض كيدٍ ومكر؛ ولأنه إذا خرج كما دخل، سيتسلق إلى الملك الحاسدون الكذابون ويُقبحون أمره ويقولوا: ما خُلِّد في السجن إلا في قضية أخلاقية كبيرة، كيف خرج منها؟!

٤) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ... ﴾

وفيه أن العالم والشريف والفاضل ينبغي أن يُبعد التهمة عن نفسه ويبرئ ساحته منها؛ لأن مرضى النفوس – وما أكثرهم – يتهمون الدين من خلال ذلك.

٥) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ.. ﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه، والله يغفر له، حيث أُرسل إليه ليُستفتَى في الرؤيا ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبت لصبره وكرمه، والله يغفر له، أُتِي ليخرج فلم يخرج حتى أخبروه بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب، ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عز وجل " ([٧٤]).

٦) ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

---

[٧٣] – تفسير السعدي.

[٧٤] – رواه الطبراني وصححه الألباني في الصحيحة.

لم يقل: ما بال امرأة العزيز، وإنما ذكر النساء جملة، ولم يقع في التصريح بشيء، تأدباً معها وحفظاً لما رأى منها من معروف وإكرام مثوى عندما كان في بيتها وتحت يدها، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

٧) ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾

فلا يكيد كائد ولا يمكر ماكر ولا يروغ رائغ إلا والله عليم به وسيعامله بعمله يوماً ما.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾

١) ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

مهما خفي الحق أياماً سيظهره الله يوماً ما، فالآن، الملك لم يستدعهن ليسألهن أو ليتحقق منهن وإنما دعاهن ليرى كيف مكرن بالشريف الفاضل حتى ظُلم تلك السنوات الطويلة.

٢) ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾

وهذا من جملة المراوغة التي لا تنفك من النساء غالباً، فانظر كيف حِدْن عن الجواب، واكتفين بنفي السوء عن يوسف، مما ألجأ امرأة العزيز إلى الاعتراف.

٣) ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾

تخيل لو أجابهم لطلبهم الأول أكُن يُثنين عليه الآن ويُظهرن صورته النقية؟! فربما يراك الناس متشدداً أو رجعياً لأنك لم تسايرهم في أهوائهم؛ لكن تبقى محترماً ومهاباً في نظرهم، وسيعترفون لك بذلك يوماً ما.

٤) ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾

جمال أخلاقك وحسن سيرتك أفصحُ من يدافع عنك في غيابك.

٥) ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾

قد تنام الحقيقة، وتنام طويلاً...لكنها لا تموت.

٦) ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾

ألم يُحصحص الحق إلا الآن؟ بلى حصحص الحق من أول لحظة ورأوا الآيات، لكن الآن حاصرتها الأدلة، وعذبها الضمير، وأُغلقت كل منافذ التهرب؛ والتنصل من خلال سؤال الملك الذي دعاهن ليسأل عن دوافع الجريمة، فالجريمة ثابتة عنده.

٧) ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

أرادت امرأة العزيز يوماً ما أن يكون يوسف من الصاغرين، وهي الآن تقف أمام الجميع صاغرة لتعترف على نفسها بما تخجل أيُّ امرأة أن تعترف به، فالجزاء من جنس العمل.

٨) ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

الصدق يُنجيك، وعند الله يُعليك، ويوم القيامة يناديك ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ المائدة: ١١٩.

٩) ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾

خيانة الغائبين جريمة دنيئة يتعفف عنها حتى أهل السوء والكفر.

ومراد امرأة العزيز: أنها ما خانت زوجها، فلم تقع في الفاحشة وإنما كانت مراودة فقط، أو أنها لم تخن يوسف في غيابه بل شهدت بصدقه وخُلقه.

١٠) ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

خائن الأمانة – سواء كانت التي بينه وبين الله كالتكاليف الشرعية، أو التي بينه وبين الناس – لا يهديه الله لمقصوده، ولا يتحقق له مراده، بل كيده يعود عليه ومكره يحيق به.

١١) ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

وفُهم منه أن الله تعالى يهدي كيد الأمناء المؤمنين، فقد يكيد المؤمن كيداً حسناً ليصل إلى حق دون أن يظلم فيه أحداً، ولهذا قيل: الكيد ذُكر على ثلاثة أوجه: كيد إخوة يوسف وكان محركهم الحسد، وكيد امرأة العزيز وكان محركها الشهوة، وكيد يوسف بإخوته بعد ذلك حين أخذ أخاهم وكان محركه لم الشمل.

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) ﴾

١) ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾

الاعتراف بالخطأ وإعلانه من غير تلكؤ، خلقٌ عظيم وفضيلة كريمة إذا لم يضطر الإنسان إلى ذلك.

٢) ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

النفس البشرية عموماً خلقها الله تعالى أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، فرّارة من الخير، فإن قيل: و لم؟ فالجواب: حتى يظهر دور الإنسان ومدى امتثاله لأمر ربه، هل سيهمل نفسه وينساها؟ أم سيعمل جاهداً على تزكيتها وتطهيرها، بمحاسبتها ومعاتبتها؟، وهنا قال الله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا

سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ الشمس: ٧-١٠.

٣) ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾

المستثنى مرحوم، والمرحوم: هو من وفقه الله لتزكية نفسه وتطهيرها بالأعمال الصالحة ودوام المحاسبة والمجاهدة حتى تتحول هذه النفس الأمارة بالسوء إلى نفس لوامة تلوم صاحبها على الشر وتعاتبه فيه ثم إلى نفس مطمئنة لا تأمر صاحبها إلا بطاعة الله فإن زلت قدمه سرعان ما يعود إلى الله.

٤) ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

غفور: لمن صدق وتاب، رحيم: بمن رجع وأناب.

فإن قيل، فهذا كلام من يُقر بأن الزنا ذنب، وأن الله قد يغفر لصاحبه.

قلت: نعم، والقرآن قد دل على ذلك حيث قال زوجها: ﴿ يوسف أعرض..لذنبك ﴾ فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل على أنهم كانوا يرون ذلك ذنباً ويستغفرون منه، وإن كانوا مع ذلك مشركين فقد كانت العرب مشركين، وهم يُحرمون الفواحش ويستغفرون الله منها " [٧٥].

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾.

١) ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

بعد التأويل: قال الملك: ائتوني به، وبعد البراءة، قال الملك: ائتوني به استخلصه لنفسي، أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي، فالبعلم تُقرب، وبالتراهة تُصطفى.

٢) ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

صاحب العلم، تحتاجه الملوك، فلا يبذل علمه ولا يُذل نفسه إلا لملك الملوك جل جلاله.

٣) ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾

لا يُعرف الرجل بما يلبس وما يركب وما يسكن، وإنما يُعرف بما يقول ويفعل، ولذلك كان يُقال: تكلم لأعرفك.

٤) ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾

---

[٧٥] – تفسير سورة يوسف / مصطفى العدوي.

قارن بين ذلك وبين قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ تجد أن المرأة يغرها المظهر؛ لكن الرجل لا يلتفت إلا إلى النطق والمخبر.

٥) ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

فيه أنه ينبغي على من رأى نفسه كفؤاً لعمل ما، أن يندب نفسه إليه ولا يتنافى هذا مع النهي عن طلب الإمارة؛ لأن النهي إنما وقع لمن كان ضعيفاً عن حملها.

قال شيخ ابن تيمية: " وأما سؤال الولاية فقد ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما سؤال يوسف؛ فلأنه كان طريقاً إلى أن يدعوهم إلى الله ويعدل بين الناس ويرفع عنهم الظلم...ففي هذه الأحوال ونحوها ما يوجب الفرق بين مثل هذه الحال وبين ما نُهي عنه " (٧٦).

٦) ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

" الوظائف والمناصب تُطلب بالعزة لا بالذلة، وتطلب لأداء واجب وسداد ثغرة، لا حشراً بدون موجب، وإسرافاً في المال العام، وتطلب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء".

٧) ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

فيه جواز العمل عند الكافر شريطة ألا يُخلّ المسلم بدينه، وألا يُمتهن دينه.

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾.

١) ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾

تأمل هذا الاختصار الرائع حيث لم يذكر الله أن الملك قد أجابه إلى طلبه وولاه خزائن الأرض وصار وزيراً مكان العزيز، ليأخذك إلى المعاني الإيمانية الأهم، والتي منها شهود أفعال الرب جل جلاله، والتي منها التمكين في الأرض.

٢) ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾

قال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على الطريق حتى مَرّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته "(٧٧).

٣) ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾

---

٧٦ – مجموع الفتاوى.

٧٧ – انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، وتفسير ابن أبي حاتم وابن كثير والقرطبي.

أسباب تمكين الله تعالى ليوسف في الأرض: صبره ويقينه.

صبره في الجب، وفي الرق، وفي السجن، وعن محارم الله حين دعته المرأة، وأما يقينه فقد تمثل في إحسانه، فالعبد إذا أيقن أن العاقبة للمتقين وأن الله غالب على أمره كان خلقه الإحسان.

فبالصبر واليقين ينال المرء التمكين.

٤) ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾

فلا يُرحم إلا من أصابه الله برحمته، ولا يُوفق إلا من أراد الله توفيقه، ولا يُنال ما عند الله إلا بطاعة الله.

٥) ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

من ثمرات الإحسان: التمكين للمحسنين في الأرض مع ادخار أجرهم كاملاً يوم القيامة.([٧٨]).

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾

١) المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة؛ لكن ثوابه في الآخرة أعظم وأجل.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) ﴾

١) ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾

كيف جاءوا ولماذا؟

قال ابن عباس: لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان، بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة [الطعام] وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس، يجلس عند البيع بنفسه فيعطيهم من الطعام على عدد رؤسهم، لكل رأس وسقاً ". ([٧٩]).

٢) ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾

وهل ينسى المظلوم ظالمه؟ هل ينسى هذه الأعين التي رمقته من أعلى البئر لتتأكد أنها قد تخلصت منه؟ شريط ذكريات كله دموع وغُصص، وآهات وقصص، كيف يُنسى؟

٣) ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾

---

[٧٨] – سورة يوسف دراسة تحليلية: أحمد نوفل.

[٧٩] – انظر: تفسير ابن أبي حاتم، وتفسير القرطبي.

كان بإمكانه أن يأخذهم ويفتك بهم وينتقم منهم ويعاقبهم بمثل ما عاقبوه، وهو القادر على ذلك، وهم البؤساء المحتاجون؛ لكن من انغرس في نفسه الإحسان لا يقدر على الإساءة.

٤) ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾

ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره، ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات؛ لأن بها حياة الأمة ([٨٠]).

٥) ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

لأنهم خلّفوه صبياً، و لم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة، مع طول المدة، وهي أربعون سنة.

وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر، وقيل: رأوه لابساً حريراً، وفي عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج ويوسف رآهم على ما كان عَهِدَهم في الملبس والحلية.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) ﴾.

١) ذكر عددٌ من المفسرين أنه شرَعَ يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة [الطعام] قال: فلعلكم عيون [جواسيس]؟قالوا: معاذ الله. قال:فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله.

قال: وله أولادٌ؟ قالوا: نعم، كنا اثنى عشر، فذهب أصغرنا،هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه، فاحتبسه أبوه ليتسلى به، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ([٨١]).

ثم طلب رؤية أخيهم، ورغبهم إن أتو به ليُكرمَنَّهم، ورهبهم إن لم يأتوا به فلا يأتون إليه، فوعدوه أن يجتهدوا أن يفعلوا.

٢) فإن قيل أليس من مقتضى البر أن يبادر إلى أبيه أو يستدعيه وكيف يصبر عن ذلك؟

الجواب: نعم؛ ولكن يبدو أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحي من الله ليكتمل المشهد ولتقع الرؤيا التي رآها.

٣) وفي قوله: ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾

---

[٨٠] – التحرير والتنوير / ابن عاشور.

[٨١] – انظر تفسير ابن كثير.

مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾.

١) لماذا رد الثمن إليهم ووضعه في رحالهم؟

الجواب: قيل: " استقبح أخذ الثمن من والده وإخوته مع حاجتهم إليه فردّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب رده تكرماً وتفضلاً " ([٨٢]).

وقيل: عرف أن إخوته لا يستحلون أكل مالٍ بغير حقه، فجعل الدراهم في رحالهم، ليرجعوا بها، ومعهم أخوهم الذي يريد إحضاره.([٨٣]).

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾.

١) ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾

يختصرون رحلة كاملة أُكرموا فيها وأُعطوا حاجاتهم، يختصرونها في كلمة واحدة ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾!!

٢) ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

ما أشبه هذه الكلمات بكلماتهم الأولى: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾، وكم من الألم أصاب يعقوب وهم يقولون ذلك؟ كم من الأسى والأذي والأسف تذكره حينما سمع ذلك؟ فجزاه الله خيراً على هذا الصبر الجميل.

٣) ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

فيه الأمر بالاحتياط والحذر ممن أُثر عنه غدر، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

---

[٨٢] – زاد المسير / ابن الجوزي.

[٨٣] – أيسر التفاسير / أبو بكر الجزائري.

٤) ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

من أراد الأمان الفعلي والحفظ الحقيقي، فليلجأ إلى الله وليلذ بجنابه، فإن نفسك التي بين جنبيك أحياناً كثيرة تخذلك وتوردك المهالك.

٥) ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

مهما قست حياتنا، وأغلظ علينا من حولنا فحسبنا أن لنا رباً رحيماً لا تخفى عليه أحوالنا.

٦) ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

أرحم بعباده من الأم بولدها؛ لكن أين من يتعرض لرحمته جل جلاله؟

٧) ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ الثمن ﴿ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ أيُّ شيء نطلبه بعد ذلك ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي يسير على عزيز مصر لاتساع الأمر عندهم وكثرة الخير لديهم.

الاحسان يدق العنق ويُشعر الإنسان بالأمان، فينفتح من القلب ما كان مغلقاً، وينشرح من الصدر ما كان ضيقاً، فاطمأن يعقوب عليه السلام ومال أن يعطيهم أخاهم لما رأى مزيد الإحسان من عزيز مصر.

٨) ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾

من وجوه الاحتياط التأكد بأخذ المواثيق المؤكدة باليمين، وجواز استحلاف المخوف منه على حفظ الودائع والأمانات ([٨٤]).

٩) ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تُغلبوا عليه أو تهلكوا دونه.

ينبغي على العبد بعد أن يأخذ بالأسباب أن يرضى بمقادير رب الأرباب جل جلاله.

١٠) ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

تفويض الأمور إلى الله واعتماد القلب على الله وركون القلب إلى الله، عنوان الإيمان ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾.

١) ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾

---

[٨٤] – المختصر في التفسير.

لئلا يُحسدوا، فالعين حق وكانوا أصحاب جمال وقوة، أو لئلا يُظن أنهم جواسيس، أو لئلا يثيروا أيَّ تحفظ من أي أحدٍ من أهل مصر، وهذا وغيره من الأخذ بالأسباب التي أمرنا الله أن نأخذ بها.

أم تر أن الله قال لمريم إليك فهزي الجزع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن كل شيء له سبب

٢) ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾

المؤمن يأخذ بالأسباب دون أن يلتفت إليها أو يعتمد عليها أو يتعلق بها.

٣) ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

سر التوكل وحقيقته: اعتماد القلب على الرب، مع مباشرة الأسباب بالجوارح، ثم الرضا بالمقدور.

قال بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله ويكذب لو توكل على الله لرضي بالمقدور.

٤) ما أجمل أن يُعلن الإنسان عجزه لأولاده حتى يعتمدوا على ربهم ويتوكلوا عليه.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾.

١) ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

يؤكد الله ما قرّره يعقوب نبي الله، الذي كتبه الله مهما فررت منه ليصيبنك، فلا يغني حذر من قدر.

٢) ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾

قيل: دفع إصابة العين لهم، وقيل: لُقيا يوسف إخوته، وقيل غير ذلك وصار هذا مثلاً يُضرب لما يكتمه الإنسان في نفسه.

٣) ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾

إذا أعجبتك رجاحة عقل أحدهم وبراعة أسلوبه وبريق علمه، فتذكر أن ذلك ليس فضلاً منه، بل فضل الله عليه.

٤) ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

أكثر الناس يجهلون حقائق الإيمان، وتدبير الله للكون والإنسان ومن هنا تحل الغفلة ويكون البُعد.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ الروم: ٧.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾.

١) ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾

قيل: أن يوسف عليه السلام لما دخل عليه إخوته أكرمهم وأحسن ضيافتهم، ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي " بنيامين "، فقال: هذا لا ثاني له، فيكون معي، وهذا معنى: ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾، وبات يضمه ويعانقه ويقول: ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾.

٢) ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾

يا لها من كلمة!! يا له من تعبير!! لو فكر فيه المرء ما فَرَّط في أخيه لدنيا زائلة ولمال هالك، أو لجاهٍ حالِك.

يا لها من حروف تقي من النوائب والحتوف، وتذكر برابطة الرحم ووشيجة القربى، وحب الإخوة الصادق.

٣) ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾

لا يجهل قيمة أخيه إلا من جهل نفسه.

قيل لحكيم: مات أبوك، قال: ملكت نفسي، قيل ماتت امرأتك، قال جددت فراشي، قيل: مات أخوك، قال: انكسر ظهري.

٤) ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾

كلمة كريمة ينبغي أن نستعملها مع إخواننا في النسب، ومع إخواننا في الدين، سنجد لها الأثر العظيم في نفوسنا، وفي علاقاتنا.

٥) ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾

علاقة الأخوة من اسمى العلاقات الإنسانية التي حين تُفقد من مجتمعنا يحصل فيه من الجفاف والغلظة والقسوة والغفلة والعداوة والكراهية، ما تجعل الحياة شقاء ونكداً لا يطاق، وإن وجود هذه الرابطة من أعظم أسباب ذوق حلاوة الإيمان.

٦) ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾

وينبغي على كل مؤمن أن يعلم إن الإخاء ليس كلاماً يُقال ولا شعاراً يرفع إنما هو حقوق وواجبات، على رأسها: التعهد بالنصح، وأن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لها، والوصل والتزاور.

٧) ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

الأصل في الأخوة أن يُذهب الأخ عن أخيه البؤس، ويبعث في نفسه الطمأنينة والأنس.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾.السقاية: صاع مرصَّع بالجواهر، كانوا يكيلون به.

١) ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

قال ابن القيم رحمه الله: " ومن لطيف الكيد في ذلك أنه لما أراد أخذ أخيه توصل إلى أخذه بما يُقر إخوته أنه حق وعدل، فلو أخذه بحكم قدرته وسلطانه، لنسب إلى الظلم والجور، و لم يكن له طريقٌ في دين الملك يأخذه بها، فتوصل إلى أخذه بطريق يعترف إخوته أنها ليست ظلماً، فوضع الصواع في رحل أخيه بمواطأة منه له على ذلك..." (٨٥).

٢) ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

فيه جواز استعمال الحيل للوصول إلى الأغراض الصحيحة ولاستخراج الحقوق، ما لم تخالف شرعاً أو تضر أحداً.

٣) ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾

فإن قيل: وكيف ليوسف أن يسرق قوماً أبرياء من السرقة؟

الجواب: أن ذلك من باب المعاريض [التورية] وأن يوسف إنما قصد أنهم سرقوه من أبيه حين غيبوه عنه وباعوه وأكلوا حقه، وجائزٌ أن يكون المؤذن أذّن بذلك حين فقد الصواع ولا يعلم بصنيع يوسف.

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾.

١) ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾

---

٨٥ – بدائع التفسير.

وهذا من تيسير الله تعالى ليوسف ومن معه، ألا يقعوا في الكذب؛ لأنهم لو قالوا: ماذا سرقنا؟ كانت الإجابة: سرقتم صواع الملك غير صادقة.

٢) ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾

فيه دليل على مشروعية الجعالة، وهي جعل مالٍ معلوم لمن يعمل له عملاً مباحاً ولو مجهولاً، بخلاف الإجارة، العمل فيها معين معلوم.

٣) ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أي ضامن أو كفيل.

فيه دليل على مشروعية الكفالة والضمان، فالكفالة: أن تلتزم بإحضار بدن من عليه حق مالي من دين أو غيره إلى صاحبه، والضمان، أن تلتزم بإحضار الحق المالي إلى صاحبه.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) ﴾.

١) ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾

فإن قيل: كيف يُقسمون على علم غيرهم؟

الجواب: لأنهم فيما ذُكر – ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم، وكأنهم يقولون: لو كنا سراقاً ما رددنا عليكم البضاعة التي وجدناها في رحالنا.

٢) ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾

فيه أن السرقة إفساد في الأرض وانتهاك لحرمة أموال الناس ولو كانوا كفاراً.

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) ﴾.

١) ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

وهذا كذلك من تيسير الله تعالى ليوسف في أخذ أخيه، فكان السارق في دين يعقوب يُسَلَّم إلى المسروق منه فيسترقه سنة، بخلاف قانون مصر ودينهم آن ذاك، كان السارق يُضرب ويُغَرِّم قيمة المسروق، فلما أراد يوسف أن يأخذ أخاه ردّ الحكم إليهم، فحكموا على أنفسهم.

٢) وفيه أنه ينبغي على من دخل بلداً أن يعرف عُرفها وأحكامها وقوانينها، حتى لا يتورط فيما يكره.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

١) ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

فيه ذكاء وحنكة وتمهيدٌ للأمور، لئلا يشكُّوا أن في الأمر حيلة واتفاقاً، فهو كقول الشاهد: ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وكقول مؤمن آل فرعون: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ غافر: ٢٨.

٢) ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

يا لمكانة نبي الله يوسف حين يقول الله في حقه: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ كاد له إخوته فانقلب كيدهم عليهم، فالجزاء من جنس العمل.

٣) ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

إن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته من غير اختيارهم، كما أخرج يوسف من يد أبيه من غير اختياره، وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع، فقالوا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ ٨٨، فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد.

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي من أجلها سجدوا له، هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له حذراً من وقوع ذلك فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك، وهذا كما كاد فرعون بني إسرائيل ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ القصص: ٤، خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه فكاده الله سبحانه بأن أخرج له هذا المولود ورباه في بيته وفي حجره، حتى وقع به ما كان يحذره، وكما قيل:

وإذا خشيت من الأمور مُقدراً وفررت منه فنحوه تتوجه ([٨٦]).

٤) ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

عندما يكيد لك بعض الناس بغير وجه حق فانتظر كيد الله بهم.

٥) ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

اصبر على كيد الكائدين كما صبر يوسف يكيد الله لك كما كاد ليوسف.

---

[٨٦] – إغاثة اللهفان / ابن القيم.

٦) ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

لأنه ليس من دينه أن يمتلك السارق – كما سبق – فلو رُدت الحكومة إلى دين الملك لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده؛ ولكنها مشيئة الله النافذة وكيده ليوسف.

٧) ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾

لا شيء يرفع مكانة العبد ويعلي منزلته كما يرفعه التقوى والعلم، فهدى الله تعالى يوسف لما هداه إليه بسبب علمه وتقواه.

٨) ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

قال الحسن: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله (٨٧)، فالعلم لا منتهى له ولا سقف.

٩) ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

عِشْ هذه الآية واستشعرها، فالعالم اليوم ممتلئ بالعلماء في كل فن، وفوقهم علم الله المحيط بكل شيء.

١٠) ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

مهما أُوتي الإنسان من العلم والفقه والذكاء والفطنة، فلا يحل له أبداً أن يغتر بعلمه أو يُعجب بنفسه، ففوقه من هو أعلم منه.

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾.

١) ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

بعد فعلهم به ما فعلوا، وبعد غيابه عنهم إلا أنهم لا زالوا يذكرونه بسوء هو منه بريء، فأين قول بعضهم لبعض: ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ ٩

انقضت الأعوام ومضت السنون و لم يصبحوا قوماً صالحين!!

٢) ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

قيل: أنه سرق في صغره صنماً كان لجده، وهذا غريب!!

وقيل: كانت له عمة تحبه جداً فسرَّقتْهُ شيئاً لم يسرقْه لتسترقه بها، على دينهم!! والله أعلم بالحقيقة.

---

٨٧ – تفسير الطبري.

٣) ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

ذاك هو الحليم حقاً، ذاك هو الخلوق صدقاً، يسمع الأذى بأذنيه، ويُغضي عليه ويكظم الغيظ ويتجاوز، حتى لا يدع مجالاً للشيطان أن يدفعه إلى أن يقول قولاً يغضب الله أو يفعل فعلاً يُغضب الله.

٤) ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

أي ضبط للنفس هذا!! وأي كظم للغيظ ذاك الذي يجعل وزيراً يتحمل اتهامه كذباً، من قوم سبق لهم أن أضروا به وبالغوا في إيذائه مع قدرته الكاملة على إيقاع أقصى الأحكام عليهم!!

٥) ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

إنها أخلاق الكبار، فرحم الله امرءاً كتم سراً وتنازل عن حق ليقطع شراً أو ليؤلف قلوب إخوانه.

٦) ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

التغافل من أجل إبقاء العلاقات، فن لا يتقنه إلا النفوس الطاهرة والفطر النقية، ولا يعني ذلك السكوت عن المحرم الذي تعدّى ضرره؛ ولكن يُعالج بحكمه.

٧) ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

إذا نظرت لأي حوار بنظرة الغالب والمغلوب، فاعلم أنك ستستميت لنصرة رأيك ولن تتجرد للحق.

٨) ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾

ليست أفعل التفضيل هنا على بابها، وإنما هي كقوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ الفرقان: ٢٤، مع أن أصحاب النار ليسوا في شيء من الخير.

٩) ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾

قال ذلك في نفسه و لم يواجههم بها.

١٠) ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

مما يُسهل على العبد البلاء، ويصبره على الضراء أنه مهما أخفى العباد من شيء يعلمه الله، وسيظهره يوماً ما، وسيعاقب عليه يوماً ما.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) ﴾.

١) ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾

وصفوا أباهم بثلاث صفات يستعطفونه بها:

١- حنان الأبوة

٢- صفة الشيخوخة المقتضية جبر الخاطر.

٣- كونه كبيراً في عشيرته أو في سنه، ومع ذلك أبي عليهم ليست قسوة منه وإنما يُعد المفاجأة للجميع.

٢) ﴿ ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾

ألم يكن له أبٌ شيخ كبيرٌ قبل ذلك؟ بلى ولكن الحسد يُعمي الأبصار ويجعل الغشاوة على القلوب.

٣) ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قيلت ليوسف وهو في السجن، وقيلت له وهو على خزائن الأرض!! المعدن النقي لا تغيره الأحوال.

٤) ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾

أخذ البريء بالمذنب يتنافي مع العدالة الإنسانية، فكيف في الشريعة الإسلامية؟!

٥) ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾

لم يقل إلا من سرق؛ لأنه يعلم أن أخاه لم يسرق،و لم يقل لهم مثل ما قالوا: ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ فما أحوجنا إلى وزن العبارة ودقة التعبير حتى لا نقع في الظلم ،

٦) ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾

لا محاباه في أحكام الشرع، فالجاني يأخذ عقوبته، سواء كان له شيخ كبير أو ولدٌ صغير، أو زوجة لاتجد راعياً.

٧) ﴿ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾

فمن الظلم قلب الحقائق وتبديل الحقوق، والظلم ظلمات يوم القيامة.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ﴾

١) ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ انفردوا بأنفسهم يتناجون ويتباحثون

فيه أنهم بلغوا الجهد في الإلحاح على يوسف حتى بلغ بهم اليأس، وذلك لأمرين:

الأول: كراهيتهم أن يعودوا لأبيهم من غير أخيهم.

الثاني: الموثق الذي أخذه أبوهم عليهم.

٢) ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾

الابن الأكبر غالباً الذي يشعر بأبيه ويتحمل المتاعب، وله في ذلك الحظ العظيم.

٣) ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾

قرّر أخوهم الأكبر ألا يخرج من مصر حتى يرسل له أبوه أو يقدِّر الله عليه أمراً يخضع له، فالمواجهة صعبة، والمسؤلية ثقيلة، وغيابه مع أخيه يخفف الصدمة على أبيه.

٤) ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾

اعتزال المفرط﴿ كَبِيرُهُمْ ﴾ وترك منصبه، فضيلة، وهو درسٌ لكل مسئول.

٥) ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

إذا لم تجد عدلاً في محكمة الدنيا،، فارفع ملفك لمحكمة الآخرة فإن الشهود ملائكة، والدعوة محفوظة، والقاضي أحكم الحاكمين.

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾.

١) ﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾

لما كانت لهم حاجة قالوا: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾ ولما انتهت حاجتهم قالوا: ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾، تغيير الخطاب بهذه الصورة ليس من المروءة.

٢) ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾

الشهادة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت عن علم أي يقين، فإذا طرأت عليها شكوك أو ظنون أو احتمالات بطلت.

٣) ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾

خفاء الغيب عن الخلق، ولو علموه ما أخذوا المواثيق على أنفسهم، ولا أخذوا أخاهم معهم.

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾.

١) ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

احذروا الكذب، فإن من كذب مرة لا يكاد يُصدَّق مهما كان صادقاً.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾.

١) ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾

لم يصدقهم أبوهم مع أنهم صادقون؛ لأنه جرب عليهم الخيانة والكذب ومن جُرب عليه ذلك لا يكاد يُصدق وإن كان صادقاً.

٢) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

إذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها، وترادفت الضوائق وطال ليلها، فالصبر وحده الذي يُشع للمسلم النور العاصم من التخبط، ولك الأسوة في نبي الله يعقوب، لما توالت عليه المحن قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

٣) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

الله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل، وقد قيل: إن الهجر الجميل هو هجر بلا أذىً، والصفح الجميل، صفح بلا معاتبة، والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوقين.([٨٨]).

٤) ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

لم يدع عليهم، لم يطردهم، لم يشتمهم، مع عظم الخَطْب وجسامة الأمر، وذلك من تمام الصبر.

٥) ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾

المؤمن لا تزيده المصائب إلا إيماناً وفألاً وحسن ظن بالله وثقةً، فقد " بنيامين " ولم يحضر الكبير، فقال: سيأتون جميعاً.

٦) ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾

انتظار الفرج وإن طال، من أعظم ما يتعبد به العبد للرب.

٧) ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾

---

[٨٨] – العبودية / ابن تيمية.

جرت سنته تعالى أن الشدة إذا تناهت يجعل وراءها فرجاً عظيماً، فكأنه عليه السلام لما رأى اشتداد البلاء قوي رجاؤه بالفرج فقال ما قال ([٨٩]).

٨) ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

عليمٌ سبحانه بأحوال عباده، حكيم في أفعاله معهم.

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾.

١) ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾

أحياناً لا يجد العبد بداً من التولي، فلا يتوانى، ففي العزلة عز. والأريب لا يستغني عن الخلوة، فجريح القلب قد يجد في ذلك سلوى وشفاءً.

٢) ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾

تأسف يعقوب على يوسف دون أخويه، مع أن البلية الجديدة أشد على النفس، إلا أن يوسف عليه السلام لم يزُل عن فكره، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به.

٣) ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾شديد الكتمان لحزنه.

ابيضت عينا يعقوب، و لم تبيض عينا يوسف، وهذا من الفوارق بين الأب والابن، فافهم أيها الابن.

٤) ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟ قلت: الإنسان مجبول على ألا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا وإنا بفراقك يا ابراهيم لمحزنون " ([٩٠])، وإنما الجزع المذموم من الجهلة من الصياح والنياحة، ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب،، وعن الحسن أنه بكى على ولده فقيل له في ذلك؟ فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب. ([٩١]).

---

[٨٩] – تفسير الألوسي.

[٩٠] – متفق عليه.

[٩١] – الكشاف.

٥) ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ ﴾ تظل ﴿ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴾ تذوب حزنا ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾

بدلاً من أن يُسري عن المكلوم، ويواسي المألوم، راح يزيده وجعاً ويملؤه بؤساً، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.

٦) ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾

خير من تبث إليه شكواك ويكشف بلواك، الذي يسمعك ويراك جل جلاله.

٧) ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

ماذا يعلم يعقوب عليه السلام عن الله، حتى ثبت قلبه وصبر الصبر الجميل؟

١- علم أن الله لطيف بعباده، وأن رحمته قريب من المحسنين.

٢- علم أن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فعليه السخط.

٣- علم أن الله يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، ويجعل عباده الصالحين خلفاء الأرض.

٤- علم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يُسراً.

٥- علم أن الله سيعيد أولاده إليه وأنا رؤيا يوسف ستتحقق، وستسجد له الشمس والقمر والكواكب.

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾.

١) ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

التحسس: قريب من التجسس، إلا أن الأول في الخير والثاني في الشر.

٢) ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

كيف يأمرهم بالبحث عن يوسف، وقد أكله الذئب؟

فالجواب: إذا حدثوك بالحسابات والعقل، فحدِثهم عن الثقة بالله وصدق الرجاء فيه وحسن الظن به.

٣) ﴿ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ أي من رحمته.

المؤمن لا يعرف اليأس؛ لأنه يثق بأن الذي يُخرج اللبن من بين الفرث والدم، قادر على إخراج النصر من رحم البأساء والضراء.

٤) ﴿ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾

الفرق بين الرجاء واليأس: أن الرجاء يحمل صاحبه على السعي والاجتهاد إلى أن يصل إلى ما رجاه؛ لكن اليأس يحمل صاحبه على التثاقل والقعود والكسل ومن ثَم الخسران المبين.

٥) ﴿ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

مثل هذه الإطلاقات كثيرة في كتاب الله: ﴿ وَلَا تَيْئَسُوا ﴾ ﴿ لا تقنطوا ﴾ ﴿ ولا تهنوا ﴾ ﴿ ولا تحزنوا ﴾، فالأمل والتفاؤل يملآن حياة صاحب القرآن.

٦) ﴿ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه، من صفة الكافرين، إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله تعالى؛ ولأن المؤمن يرجو الله تعالى حتى في أشد الشدائد.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾.

١) جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما على غير وجه التسخط.

قال القرطبي: وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضرر، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه، ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط ([٩٢]).

٢) يجزي الله تعالى المتصدقين في الدنيا بالصحة والعافية والعِوض ومحبة الناس لهم وثنائهم عليهم، وفي الآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٣) ليؤيدن الله تعالى المظلوم ولو بعد حين، فتأمل كيف أذل الله الذين ظلموه فأتى بهم بين يديه صاغرين يقولون: تصدق علينا.

---

[٩٢] – الجامع لأحكام القرآن.

٤) من تأمل ذل إخوة يوسف لما قالوا: ﴿ تصدق علينا ﴾ عرف شؤم الزلل ([٩٣]).

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩ ﴾.

١) ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

الكريم عتابه قليل لا تجريح فيه ولا توبيخ معه، فتأمل: لم يُنغص عليهم بذكر تفاصيل الجنايات التي ارتكبوها، ومحاولة القتل التي حاولوها؛ ولكن ذكر شيئاً قليلاً يُذهب ما في نفسه.

٢) ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

وهذا هو الوحي الذي أوحاه إليه في قوله ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

٣) ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل؛ لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم.

وقيل: إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم...([٩٤]).

قال ابن كثير: وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يُلفُوا عذراً كهذا، ففيه تخفيف للأمر عليهم ([٩٥]).

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾.

١) ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾

يقولون: هذا أكبر تعارف محرج في التاريخ.

٢) ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾

لم يقل: أنا عزيز مصر، بل ذكر اسمه خالياً من أي صفة، فصاحب النفس الرفيعة،لا يلتفت إلى المناصب والرتب ولا يتطلع إليها.

٣) ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾

---

[٩٣] – صيد الخاطر: ابن الجوزي.

[٩٤] – فتح القدير / الشوكاني.

[٩٥] – تفسير ابن كثير.

تأمل هدوء يوسف ولطفه، تعلم أن المؤمن الصادق لا يعرف الانتقام طريقاً إلى قلبه، ولا يستسلم لوساوس نفسه ولا يُفَرِّغ شحنة حقده بل يكتفي بلفت نظر من أساءوا إليه إلى فداحة ما ارتكبوه من خطأ في حقه.

٤) ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

بالخلاص مما ابتلينا به، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة.

وفيه نسبةُ الفضل والنعم كلها إلى الله جل جلاله.

٥) ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

أراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله، فحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضاً بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم، وهذا من أفانين الخطابة، أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة وهي فرصة تأثير السامع وانفعاله...." ([٩٦]).

٦) ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

فيه: فضيلة التقوى والصبر وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب.

٧) ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

الصبر شاق على النفوس والتقوى لا تختلف عنه، فمن ألزم نفسه وتحمل فليُبشر بما يسره.

٨) ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

التقوى والصبر هما طريق الخلاص من المحن والمصائب، وهما طريق العز والتمكين في الأرض.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) ﴾.

١) ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

ما من شخص يعاديه الناس ظلماً، ويسيئون إليه حسداً، إلا ويأتي يوم يعترفون فيه بفضله.

٢) ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

بماذا فضَّل الله يوسف عليهم؟

الجواب: بالتقوى ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وذلك هو الميزان الحقيقي للتفاضل، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات: ١٣

---

[٩٦] – التحرير والتنوير.

٣) ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾

الاعتراف بالخطأ، والإقرار بالذنب، يُطيب النفوس، ويُنهي الخصومات ويقلب الصفحات، ويقضي على البغضاء والمشاحنات.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾

١) ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

لم يعيرهم، لم يفتح ملفات، لم يُصَفِّ حسابات، لم يراجع حقوقاً، بل عفا عنهم، ودعا لهم، فهل مارست ذلك يوماً ما في حياتك؟

٢) ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

من اعترف بخطئه، وأقر بذنبه، فلا تكثر لومه، ولا تترد في الصفح عنه، فذلك شيم الكرام، وأخلاق الكبار.

٣) ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

هنا تتجلى العظمة وتظهر القلوب البيضاء وتبدو المعادن في لحظة واحدة،تَمزَّق تاريخُ الكيد والمكر والاتهامات والتشديد والبيع وتشويه السمعة.

٤) ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته وإبقاءه عليهم ومصافاته لهم، تُعلِّمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ونحسن إليه ونُصفي له الود، وأن نغضي عن كل إهانة تلحق بنا، فيُسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته في هذه الدنيا كما أوسع على يوسف، ويورثنا السعادة الأخروية، وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ونقمنا عليهم فينتقم الله منا ويوردنا مورد الثبور، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ([٩٧]).

٥) ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

من موجبات رحمته، رحمة خلقه، ومن موجبات مغفرته، المغفرة لخلقه، ومن موجبات عفوه، العفو عن خلقه.

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾.

١) ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾

---

[٩٧] – محاسن التأويل / القاسمي.

إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله، ولولا الوحي لما عرف ذلك؛ لأن العقل لا يدل على ذلك.([98])

٢) ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾

فائدة إرساله إلى أبيه القميص أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر، ولقصد تعجيل المسرّة له، والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه، فإن قمصان الملوك والكبراء تُنسج إليهم خصيصاً ولا توجد أمثالها عند الناس، وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم ([99]).

٣) ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾

ولم يذهب هو إليهم، لشغله بخزائن الأرض وتوليه الأمور بنفسه، وأيضاً ليُدخل على أهله السرور والفرح حين يروا ما فيه من تمكين وعز، وليحسن ضيافتهم وإكرامهم.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ ٩٥

١) ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي غادرت مصر إلى أرض كنعان حيث يعقوب عليه السلام.﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

قال ابن عباس: هاجت ريحٌ فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال ([100]).

٢) ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

إذا أذن الله لك بشيء حُمل إليك ولو عن طريق الرياح.

٣) ﴿ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ أي لولا أن تتهموني بالخرف وضعف العقل لأخبرتكم بأن يوسف حيّ.

فيه أن الإنسان مهما بلغ علمه وعظمت مترلته، يكره تسفيه رأيه ويتألم من ذلك، فاحذر ممارسة ذلك.

٤) ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ القائلون: أحفاده ومن عنده.

---

[98] – تفسير الرازي.

[99] – التحرير والتنوير / ابن عاشور

[100] – الجامع لأحكام القرآن: القرطبي.

يا له من عقوق ورثوه من آبائهم، وسيمارسونه مع آبائهم، فمن عق جده عق أباه، فتنبه

٥) ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾

لم يذكر الله تعالى جواب يعقوب عليهم، إذ لم يجبهم، فالسفيه لايُجاب والشتَّام لا يُلتفت إليه، والساخر يُعرض عنه.

إذا نطق السفيه فلا تُجبه فخير من إجابته السكوت

إن كلمته فرّجت عنـــــــه وإن خليته كمداً يموت

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾

١) ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾

بعد المحنة منحة وبعد المنع عطاء، وبعد البلية عافية؛ ولكن، الصبر الجميل.

٢) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لا بأس أن تُذكِّر الآخرين بصحة توقعاتك ورجاحة عقلك، حتى ينصتوا لك بعد ذلك.

٣) ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾

لما سألوه الاستغفار لذنوبهم، قرنوا ذلك باعترافهم بالخطأ وإقرارهم بالذنب؛ لأن من شروط المغفرة والعفو، الاعتذار والاعتراف.

٤) ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

فيها دليل على إرجاء الاستغفار وتأجيل العفو والصفح، لوقت يرى أنه أحضر قلباً وأهدى نفساً.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾.

١) ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾

المؤمن الصادق بارٌ بوالديه، يضمهما إليه، ويبالغ في الإحسان إليهما ويخصهما بمزيد من العناية دون إخوته وأولاده وزوجته.

قال الحافظ ابن كثير: " اجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته " (١٠١).

---

١٠١ – البداية والنهاية.

٢) ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ ﴾

التعليق بمشيئة الله تعالى شأن المؤمنين ولا سيما الأنبياء والصديقين، فهو في إسداء النعمة إلى أهله يتبرأ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخّره لهم، وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم.(١٠٢)

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾.

١) ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾

إنها رسالة لكل من آتاه الله مكانة وعلماً وغنى أن يَرُدَّ الجميل لوالديه، وأن يرفعهما حِسّاً ومعنى.

٢) ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾

ليس من الأدب أن تجلس في مكان مرتفع ووالداك أو أحدهما في مكان دونك.

٣) ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾

وكان هذا سائغاً في شرائعهم، إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، و لم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحُرِّم هذا في هذه الملة وجُعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى (١٠٣).

٤) ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾

و لم يقل: إذ أخرجني من الجب مع أن النعمة فيه أعظم؛ ولكن أراد – لكرمه وحسن خلقه – ألا يُذكِّر إخوته بصنيعهم معه، بعد أن عفا عنهم.

٥) ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾

الخروج من السجن، بل الخروج من سائر الضوائق إحسان رباني ليس للبشر فيه منة.

٦) ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾

فيه دليل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن(١٠٤)وفي الحديث " من بدا جفا " (١٠٥).

---

١٠٢ – تفسير المنار

١٠٣ – تفسير ابن كثير.

٧) ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾

لم يقل: من بعد أن ظلمني إخوتي، وفعلوا بي كذا وكذا، وذلك من لطفه بهم وحسن خلقه معهم، فالكريم لا يلوم ولا يعاتب، بل يتغافل ويعفو، لا سيما وقت الصفاء.

٨) ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾

الشيطان رأس كل شر، يسعى بالليل والنهار للتفريق بين الإخْوة والإفساد بين الأحبة، وللأسف الشديد يستجيب لترغاته أكثر الأحبة!!

٩) ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾

يُلخص يوسف عليه السلام محنته وابتلاءه وقصته في هذه الكلمة

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أراد به الخير وهو لا يعلم وأوصل إليه المصلحة والفضل وهو لا يحتسب.

فمن كان يظن، ويوسف عليه السلام يعاني هذه لمحن والابتلاءت، أن ذلك سيكون سبباً في تمكينه في الأرض وتحكمه في أقوات الناس؟

ذاك هو الله اللطيف.

١٠) ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

عليم سبحانه وتعالى بمن يستحق وبمقدار ما يستحق، وحكيم في وضع الحق في أهله كماً وكيفاً، له العلم التام والحكمة التامة وبهما تتم الأمور وتصلح الأحوال.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾.

١) دعا يوسف عليه السلام ربه كثيراً في شدته، وها هو يدعو الله تعالى في رضائه ومسرته.

فلا تجعل الدعاء كالدواء، تستعمله عند المرض والمصيبة فقط، بل اجعل الدعاء كالهواء، ادع ربك في السراء والضراء، فالدعاء هو العبادة.

٢) التوسل إلى الله تعالى ليس بحالك المؤلم وحاجتك الملحة، وشدتك الموجعة فقط؛ ولكن توسل إلى الله كذلك بنعمه عليك، قل: يا رب أعطيتني ومنحتني، ثم اطلب حاجتك.

---

١٠٤ – محاسن التأويل

١٠٥ – رواه أحمد وحسنه الألباني في الصحيحة ،

٣) ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

لم ينسب يوسف نجاحاً أو علماً أو تمكيناً لنفسه بل نسب إلى الله كل شيء، فنحن بدون الله لا شيء.

٤) ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

ما أعظم أن تجعل بين يدي دعائك وحاجتك ثناءً جميلاً على من يعطيك حاجتك، تُجْدِي كثيراً إذا كنت تسأل مخلوقاً، فكيف وأنت تسأل الخالق جل جلاله.

٥) ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

ما أسعد العبد إذا كان الله وليه، ينصره حين يخذله الناس، يؤيده حين يكذبه الناس، يكون معه حين يتركه الناس، يقضي حاجته، يكشف كربته، يزيل غربته.

٦) ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

حينما استشعر يوسف عليه السلام عظيمَ نعم الله عليه من حكم وعلم ونبوة ورجوعه إلى أهله، طمع فيما هو أسمى وأعلى ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

٧) ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يَقَرُّ لها قرار، وأن كل شيء فيها وعليها فانٍ وما بعد التمام إلا النقصان فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسؤلين أن يتوفاه أي حين يتوفاه، على الإسلام وأن يلحقه بعباده الصالحين ([١٠٦]).

٨) ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

لاحِظ كلمة ﴿ مسلماً ﴾ يتأكد لديك أن دين الأنبياء جميعاً واحد وهو الإسلام، النعمة العظمى التي دعا جميع الأنبياء أقوامهم إليها قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ آل عمران: ١٩

وقال: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥.

وفي الحديث: " الأنبياء أخوة لعلاّت، أمهاتهم شتى ودينهم واحد..." ([١٠٧]).

والمعنى أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد لله والاسلام له، وشرائعهم قد تختلف.

---

١٠٦ – البداية والنهاية / ابن كثير.

١٠٧ – رواه البخاري.

٩) ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

هل حَرصت أن تدعو بهذا الدعاء ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

عن أبي موسى الأشعري قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابياً فأكرمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سل حاجتك، فقال: ناقة برحلها وأعتراً يحلبها أهلي،فقال صلى الله عليه وسلم: أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟ فقال أصحابه: يا رسول الله، وما عجوز بني إسرائيل؟ فقال: إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: نحن نحدثك، إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا([١٠٨]) قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قال: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها، فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيَني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن يعطيها حكمها، فانطلقت بهم إلى بُحيرة، فقالت: أنضبوا هذا الماء، فأنضبوه، فقالت: احفروا هنا، فلما حفروا، واستخرجوا عظام يوسف([١٠٩])،فلما أقلوها إلى الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار " ([١١٠]).

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾.

١) ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾

لماذا أوحى إلى نبيه هذا الغيب؟

ليثبت فؤاده، ويُقوِّي قلبه، ويصبره على ما ناله من الأذى من قومه، وليعلم هو ومن اتبع هداه، أن من قبله من الرسل أوذوا وصبروا، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعرف، وأعرضوا عن الجاهلين، فأيدهم الله بالنصر ومكن لهم في البلاد.

٢) ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾

لا يعلم الغيب نبي إلا بوحي، فكيف يدعي علم الغيب مشعوذ أو كاهن أو منجم؟!

٣) ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

---

[١٠٨] وكان ذلك مشروعاً عندهم

[١٠٩] وكان يُطلقون العظام ويريدون به البدن، انظر الصحيحة

[١١٠] رواه أبو يعلى، وابن حبان، وانظر الصحيحة.

لكن سبحانه من لا تخفى عليه خافية ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ... ﴾ النمل: ٥٠، ٥١.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٣.

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

١) هذا حكم الله تعالى في الناس: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ولو بحثت عن كلمة ﴿ أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ في القرآن، لوجدت بعدها: ﴿ لا يعلمون ﴾ ﴿ لا يشكرون ﴾ ﴿ لا يؤمنون ﴾.

ولو بحثت عن كلمة ﴿ أكثرهم ﴾ لوجدت بعدها: ﴿ فاسقون ﴾ ﴿ يجهلون ﴾، ﴿ لا يعقلون ﴾، ﴿ معرضون ﴾، ﴿ لا يسمعون ﴾.

فكن أنت من القليل الذين قال الله فيهم: ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾

٢) ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

فمجرد الكثرة لا تدل على الحق، فكم من باطل تواطأت عليه الجموع، فاسلك طريق الهدى ولا تستوحش من قلة السالكين، واحذر طُرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين المفتونين.

٣) ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

إياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون، فإنهم يقولون: لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً والناس على خلافهم، فاعلم أن هؤلاء هم الناس، ومن خالفهم فمشبهون بالناس، وليسوا بناس، فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عدداً ([١١١]).

٤) ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

فيه بيان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيمان الناس وهدايتهم، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية الصادق، أن يبذل قدر اجتهاده في إيصل الخير للغير، ولا ينتظر النتائج الفورية، بل لا ينتظر النتائج أصلاً ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

---

[١١١] – مفتاح دار السعادة:ابن القيم.

١) ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾

الأنبياء لا يأخذون من الناس أجراً على دعوتهم وإرشادهم، وكذلك أتباعهم من الدعاة الصادقين، فما كانت الدعوة يوماً ما وسيلة من وسائل الكسب، ولا سبباً من أسباب تحصيل شيء من حطام الدنيا.

٢) ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾

حقيقة أعلنتها سائر الأنبياء لأقوامهم، لأنه إنما تفتح القلوب للدعاة إلى الله بقدر إخلاصهم لله.

قال الله تعالى متعجباً من فرار الناس من الدعوة وتوليهم عنها -: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ الطور: ٤٠.

٣) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

دعوة الإسلام، ليست محصورة في مسجد أو شيخ أو بلدة إنما هي دعوة عالمية منذ لاح فجر الإسلام.

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾.

١) الآيات كثيرة والأدلة على وحدانية الله وصدق الرسل – وفيرة؛ لكن الإشكال في البصر والبصيرة.

٢) إعراض المعرضين، وغفلة الغافلين، واستهزاء المستهزئين، ليس عن قلة أدلة وضعف آيات وبراهين؛ ولكنه الكبر والجحود، عياذاً بالله.

فواعجباً كيف يُعصي الإله وكيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء من كونه آية تدل على أنه الواحد.

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

١) أكثر الناس لا يؤمنون بالله لقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ وأكثر المؤمنين وقعوا في الشرك وهم لا يشعرون، لقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

٢) ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

قال ابن عباس: من إيمانهم: إذا قيل لهم: من خلق السماوات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به ([١١٢]).

أي يعملون لغيره، ويحلفون بغيره، وقد يتحاكمون إلى غيره، ولا يخلصون له في العبادة.

وقال أيضاً: إن أحدهم يشرك، حتى يشرك بكلبه، فيقول: لولا الكلب لسُرقنا الليلة ([١١٣]).

٣) ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

الآية " تشير إلى ما يتخلل الأفئدة، وما ينغمس به الأكثرون من الشرك الخفي، الذي لا يشعر صاحبه به غالباً، ومنه قول الحسن في هذه الآية: ذاك المنافق، يعمل إذا عمل رئاء الناس، وهو مشرك بعمله، يعني: الشرك في العبادة، فصاحبه وإن اعتقد وحدانية الله؛ ولكن لا يخلص له في عبوديته، بل يعمل لحظ نفسه، أو طلب الدنيا، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق، فلله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، وهذا حال أكثر الناس، وهذا هو الشرك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: " الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل " ([١١٤]).

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

١) أفأمن الذين ينتهكون حرمات الله في السر، مكر الله؟

أفأمن الذين يبارزون الله بالمعاصي، مكر الله؟

أفأمن الذين يسهرون السهرات الحمراء على الخمور والفواحش، مكر الله؟

أفأمن الذين قصروا في الصلوات واتبعوا الشهوات، مكر الله؟

أفأمن أولئك أن يترل عليهم في الدنيا العذاب؟ أو تقضى آجالهم وهم في غفلة؟

٢) الأمن من مكر الله من كبائر الذنوب، ومن موجبات سخط الله ومن أسباب الخسران في الدنيا والعذاب في الآخرة، ومن أسباب سوء الخاتمة عياذا بالله.

قال ابن مسعود: " أكبر الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله " وقال ابن عباس، نحوه ([١١٥]).

---

[١١٢] – تفسير ابن كثير.

[١١٣] – فتح الباري: ابن رجب.

[١١٤] – محاسن التأويل: القاسمي.

[١١٥] – انظر تفسير ابن كثير، وفتح الباري.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

١) ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾

ينبغي على الداعية إلى الله أن يصدع بالحق ويُفصح عن فكرته وفكره وعقيدته ومنهجه، ولا يكن مُمَيعاً للأمور يحاول إرضاء الجميع؛ لكن بحكمة.

٢) ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾

إشارة قوية إلى ضرورة الإخلاص في الدعوة إلى الله.

وعلامة إخلاص الداعية: الانفعال بالدعوة والتحمس لها، وبذل أقصى الجهد في تبليغها، ذلك لأن من أخلص لشيء أعطاه كل ما يملك فماله، ووقته، وجهده وفكره، وكل إمكاناته مسخرة في خدمة الدعوة.

ومن أبرز آثار الإخلاص على نفسية الداعية: نكران الذات، فالداعية الصادق لا يفكر دائماً في نفسه، بل يفكر في قبول عمله من عدمه.

٣) ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾

لو تحقق الإخلاص في واقع صف الدعوة، لما كان هذا الشتات بين الدعاة، ولما كانت الفرقة بين أبناء الدعوة، علماً بأن البناء واحد، والغاية واحدة، والعدو واحد، ولكنه عبث الأهواء، والرغبة في الظهور، عياذاً بالله.

٤) ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾

فالدعوة إذا كانت لله، فإنها تبني ولا تهدم، تجمع ولا تفرِّق، تقرِّب ولا تبعِّد، أما الدعوة الشخصية فإنها تهدم وتفرق وتُبعد!!

٥) ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾

البصيرة في حياة الداعية: العلم بثلاثة أمور:

١- بما يدعو إليه – الحكم الشرعي.

٢- بحال المدعو.

٣- بكيفية الدعوة.

٦) ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾

والبصيرة في حياة الداعية إنما تُحصَّل بالصدق والصبر والثبات والعمل بالعلم، وتقوى الله تعالى.

٧) ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

فحُق على كل من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى ما دعا إليه، وأن يُحذر مما حذّر منه، وأن يسلك سبيله في الدعوة إلى الله.

٨) ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾

وهذا عطف على قوله: ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ فسبيله صلى الله عليه وسلم يتميز بسمتين: الأولى: الدعوة إلى الله، وأول ما يدخل في ذلك توحيده اللازم لمعنى الإله المعبود حباً وتعظيماً، والثانية: تسبيح الله: أي تنزيهه من أن يكون له شريك ([١١٦]).

٩) ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

عطفٌ آخر أشار فيه إلى مقتضى ما سبقه وهو البراءة من أهل الشرك، فسبيل محمد صلى الله عليه وسلم الذي أُمر أن يُعلنه صريحاً: الدعوة إلى التوحيد والتنزيه عن الشرك والبراءة من المشركين أجمع.

ولعل من نكت الجمع بين الثلاثة، بيان أهمية التزامها جميعاً، فهي دعوة لكل دعوة بأن تراجع نفسها وتنظر في سيرها وسبيلها بناءً على ضوء تلك الأصول، ومقياس القرب والبعد عن طريقه صلى الله عليه وسلم هو درجة التزام الدعوة بتلك الأصول ومدى قربها وبعدها عنها ([١١٧]).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

١) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

أرسل الله تعالى رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة، إن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات آدم وحيَ تشريع ([١١٨]).

٢) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

فيها إشارة إلى أن المؤهلين بالقيام بشئون الدعوة العامة هم الرجال، وليس ذلك حطاً من شأن المرأة ولا تنقصاً لها، وإنما يرجع ذلك إلى الجبلّة التي خُلق عليها الرجل دون المرأة، فالرجل

---

[١١٦] – آيات للسائلين.

[١١٧] – آيات للسائلين مختصراً.

[١١٨] – تفسير ابن كثير.

يتحاكم غالباً إلى المنطق والأسباب والنتائج، بخلاف المرأة التي قد تنسف تاريخ حسنات الرجل في لحظة غضب.

٣) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

ولا يعني ذلك أن تترك المرأة الدعوة إلى الله، بل هي على ثغرٍ كبير، ومسؤلية عظيمة قد لا يَسدُّها غيرها خصوصاً مع أبنائها وبنات جنسها.

٤) ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

لا من أهل البادية الذين يغلب على حياتهم الجفاء والقسوة، فاختار الله الرسل من أهل القرى؛ لأنهم ألين وأعقل وأحلم وأفضل وأعلم، وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة ومشاقها.

٥) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

إذن لابد من التسليم بوجود الفوارق بين الرجل والمرأة، وأهل البدو وأهل الحضر مع استصحاب ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات:١٣.

٦) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

فيها: وجوب النظر والتفكر والاتعاظ والاستفادة من مصرع الأمم الماضية، لندرك أن مصيرك كمصيرهم إذا تشبهنا بهم، وأن عاقبتنا في هذه الأرض إلى ذهاب كعاقبتهم، والعاقل من اتعظ بغيره، والشقي من كان عظةً لغيره.

٧) ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾

خبرٌ مؤكد بلام القسم، يفيد أن نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا، ذلك أن نعيم الاخرة البدني أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته وفي دوامه وثباته، وفي كونه غير مشوب ولا مُنَغَّص بشيء من الآلام وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض، ولا إزالة أقذار، فما القول في نعيمها الروحاني من لقاء الله ورضوانه، وكمال معرفته المعبَّر عنه برؤيته ([١١٩]).

٨) ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

العاقل هو الذي يميز بين ما لا يفنى ولا يبيد، وبين ما يفنى ويبيد ثم يؤْثِر الأول على الآخر.

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

١) (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا)وقرئت: كُذَّبوا بالتشديد.

---

[١١٩] – تفسير المنار.

والمعنى كما ذكرته عائشة رضي الله عنها: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يئسوا من إيمان أقوامهم، وخافوا تكذيب من معهم من المؤمنين لهم.([١٢٠]).

٢) ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾

فالرسل الكرام لم ييأسوا من رحمة الله – وحاشاهم – ولكن مرت عليهم ساعة شعروا فيها أنهم قد أدَّوا ما عليهم من البلاغ، فلا جديد عندهم ولا عند أقوامهم.

٣) ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾

حين يشتد الظلام، ويتزايد الألم، ويعظم الكرب، ولا يكون في القلوب إلا الله، يتنزل النصر عزيزاً من عند الله.

٤) ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾

لا ينبغي للداعية أبداً أن يتسرب اليأس إلى نفسه، إذا أعرض الناس عن دعوته، أو سخروا منه، أو تقوّلوا عليه، وإن طال الزمان على ذلك، فإن نصر الله آتٍ.

٥) ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾

النصر يتنزل حين يبذل الدعاة كل جهدهم ويستنزفون كل طاقاتهم.

٦) ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

إذا نزل العذاب على الظالمين أُخذوا أخذاً شديداً دون هوادة أو رأفة.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

١) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ أي عظة.

القصص القرآني، قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين، مليئة بالعبر والعظات، للظالم والمظلوم، للحاسد والمحسود، للمبتلَى وغيرهم؛ ولكن من الذي يأخذ العبرة؟

٢) ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

فلا يعتبر بالقرآن وقصصه إلا من أعمل عقله، وتدبر وتأمل، فالعقلاء، أهل البصائر هم الذين يعتبرون بما مضى، وينظرون في عواقب الأمور؛ ولكن الغافلون الذين ظلموا أنفسهم وعطلوا عقولهم وأعرضوا عن دعوة الرسل، لا يعتبرون بما مضى ولا ينظرون فيم بقي، فلا يفيدهم النصح والتذكير.

---

١٢٠ – انظر صحيح البخاري.

٣) ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾

قصص القرآن أصدق القصص وأحسنه وأظهره واقعية، ما قصه الله علينا لنتسلى بطُرفه وطرائفه، أو لنقضي به الزمن ونتجاذب حوله أطراف الحديث، ككثير من القصص المخترعة والروايات المستوحاة من الخيال، وإنما واقع يحكيه الله للعبر.

٤) ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

فمن تأمل سائر كتب الله علم أنها نزلت من معين واحد، فصدّق بعضها بعضاً وأكد بعضا على بعض.

٥) ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

ففيه الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وفيه الإفصاح عن الله جل جلاله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وفيه المثل والحكمة والقصة والعبرة، وفيه سائر ما يحتاجه العباد في دنياهم ودينهم.

٦) ﴿ وَهُدًى ﴾

القرآن مرشد لمن جهل الحق وعمي عنه، وإذا كان كذلك فلن يضل متبعه أبداً.

٧) ﴿ وَرَحْمَةً ﴾

القرآن من أعظم موجبات الرحمة، وإذا كان كذلك فلن يشقى متبعه أبداً.

٨) ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

الذي لا يريد الإيمان والهداية، فلو تناطحت الجبال بين يديه ما اتعظ.

٩) ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

الهدى الذي في القرآن: العبر الباعثة على الإيمان والتقوى، بمشاهدة ما جاء في الأدلة في أثناء القصص على أن المتصرف هو الله تعالى، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة.

وكذلك الرحمة: فإن في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم.([١٢١]).

١٠) وإذا كان القرآن فيه تفصيل كل شيء، وهو مع ذلك هدىً ورحمة، فما بال أولئك الذين هجروه الأيام والشهور والسنين؟

ما بال أولئك الذين نبذوه وراء ظهورهم؟

ما بال أولئك الذين يطلبون الهدى والفلاح والسعادة في غيره؟

---

[١٢١] – التحرير والتنوير / ابن عاشور.

ما بال أولئك الذين شرقوا وغربوا يقتبسون من شرائع الغرب وقوانينهم، ومعهم الدستور العظيم والكتاب القويم؟

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠.

والحمد لله أولا وأخيرا

www.alukah.net
شبكة الألوكة
هذا الكتاب منشور في
شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة - قسم الكتب